وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

الهيئة العامة السورية للكتاب
The Syrian General Organization of Books

الكتاب الشهري ٥٧

٢٠٠٨

كتابُ
الرحلة الإمبراطورية في الممالك العثمانية

نظم عقده
إبراهيم الأسود
صاحب جريدة لبنان

تقديم وإعداد
خيري الذهبي

كتـــابُ
الرحلة الإمبراطورية
في الممالك العثمانية

آفاق ثقافية

كتابُ
الرحلة الإمبراطورية
في الممالك العثمانية

نظم عقده
إبراهيم الأسود
صاحب جريدة لبنان

تقديم وإعداد
خيري الذهبي

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة — دمشق ٢٠٠٨

آفــاق ثقافيــة دمشقيــة

العــدد (٥٧)

كانون الثاني ٢٠٠٨

آفاق دمشقية

د. عبد النبي اصطيف

شتاء عام ٢٠٠٨ لن يكون الشتاء المألوف الذي اعتاده الدمشقيون، ولن يكون فصل سبات الطبيعة انتظاراً لقدوم الربيع وانبعاث الحياة فيه من جديد. ذلك أن الربيع أتى مبكراً هذا العام الذي تتألق فيه دمشق عاصمة للثقافة العربية، أو بالأحرى تعاود ألقها وتجدده. وهل كانت في يوم، مذ وجدت، غير شامة الشرق وحاضرة الأمم التي تعاقبت على سكناها، وملاذ الأحرار الذين يأتونها من كل فج، يتشممون تربها، وينعمون بأفياء غوطتيها، ويتنسمون فيها عبق الحرية، ويتنشقون فسحة الإبداع الإنساني المستمر، بل الممتد من الأزل إلى الأبد؟

ولذا فإن من الطبيعي أن تتجه أنظار سلسلة «**آفاق ثقافية**» إلى دمشق الشام التي ستكون على موعد مع ألوان من الإبداع الشآمي والعربي والعالمي على مدى العام كله، وأن تعاين في

مسعاها المعرفي الأفق الدمشقي، تتفحصه بشيء من فتون العاشق، ولهفة المحب الذي أمضه الحنين، وإشفاق المولع بل فَرَقه من أن تمس يده فيض الجمال السامي الذي يحتضنه هذا الأفق وتعبث بمشهده الفريد.

ولكن لما كان الوعي بالهوية الفردية أو الجمعية، وتأسيسه على أرضية من المعرفة، والإفصاح عنها بمحكم البيان، لا تتم إلا في حضور «الآخر»، وفي تفاعله مع «الذات» في فسحة «العالم» المحيط بهما، فقد كان من الطبيعي أيضاً أن ينسرب المسعى المعرفي في معاينته للأفق الدمشقي في ثلاثة سبل: معرفة الذات ومعرفة الآخر ومعرفة العالم، وأن تتصرف الكتب التي تتدرج في سلسلة «**آفاق ثقافية**» إلى معاينة دمشق ذاتها، وإلى تدبّر صلاتها بالآخر، وإلى تأمل موقعها في العالم.

وكان من الطبيعي كذلك أن تعهد **الهيئة العامة السورية للكتاب** إلى الأستاذ خيري الذهبي الروائي والقاص العربي الدمشقي، المفتون بدمشق بل بكل ما فيها وكل من فيها، ليجلو لقراء السلسلة بعضاً من وجوه الدرة الفريدة، خاصة وأنها تجلت في رواياته وقصصه بكل ما في إنسانيتها من غنى ودفء وحنين عارم إلى احتضان الكون كله.

وقد أحب الأستاذ الذهبي أن يبدأ السلسلة بكتاب يجمع شمل بلاد الشام كلها من خلال الحديث عن رحلة قام بها الإمبراطور

الألماني فيلهيلم الثاني[1] Wilhelm II في خريف عام ١٨٩٨ زار فيها كلاً من فلسطين ولبنان وسورية قادماً من الأستانة عاصمة الإمبراطورية العثمانية، أو الرجل المريض الذي كانت تتربص به دول الغرب العظمى آنذاك لتقتسم تركته، ليذكّر بوحدتها وبمصيرها المشترك الذي تحدّد من جانب «الآخر»، عندما قسّمها فيما بين أعضاء عصبته ونصّب من كل منهم وصياً على جزء منها يستعمره وينهب خيراته ويصادر إرادة الحرية والحياة فيه.

ولعل في ذلك تذكرة للقراء المعاصرين أن هذا "الآخر" سواء أكان غازياً مثل نابليون بونابرت، أم كان "زائراً" من طبقة الأباطرة، وضيفاً للسلطان العثماني، ما كان له أن يعبث بمقدّرات هذه البلاد ولا بمصير أهلها، لولا أنها أسلمت قيادها للوالي العثماني الذي يكترث بها؛ لأنها ليست بالنسبة له غير فسحة لمنصبه الذي ولاّه إياه السلطان ومنحه به صكاً أبيض، وتفويضاً مطلقاً للتصرف بها وبما فيها وبمن فيها.

---

(١) فيلهيلم الثاني Wilhelm II إمبراطور ألمانية وقيصرها وملك بروسيا، حكم بين عامي (١٨٨٨-١٩١٨). اتبع، بعد تخلصه من بسمارك عام ١٨٩٠، سياسة خارجية مهددة للاستقرار في أوربة مما ورّط ألمانية في مشكلات عديدة مع قواها الأخرى (من مثل مؤتمر أليجاسيراس ١٩٠٦، وأزمة أغادير عام ١٩١١) ، حتى أنه دعي في زمن الحرب العالمية الأولى أمير حرب "Warlord"، ولكنه في النهاية أسلم قياد ألمانية إلى جنرالاتها، ولا سيما لودندروف وهندربرغ، وتخلى عن عرشه للأمير ماكسيميليان أمير بادن Baden آخر مستشار للإمبراطورية الألمانية، فاراً إلى هولندة.

ومعنى هـذا أن الكتاب الذي يدوّن فيه إبـراهيم الأسـود[١] صاحب جريدة لبنان **«الرحلة الإمبراطورية في الممالك العثمانية»**، ويصف فيه تلك العلاقة الغريبة التي جمعت بين «الآخر» الغربي، و«الأنا» العربي، الذي كان آنذاك محكوماً بـ«الآخر» العثماني، ينبغي أن يكون **حافزاً لقرائه المعاصرين على إعادة النظر في علاقتهم بـ «الآخر» حتى يتبينوا أن هذه العلاقة ينبغي أن تقوم على التعارف- معرفة كل منهما بالآخر، وأن تحكمها القيم الإنسانية السامية ، لا المصالح الدنيوية التي تجعل من القوة والسلطان يداً عليا تتحكم بمصير «الآخر» المختلف، وتنتهك جميع حرماته، وتتحول قوة الحق بسببها إلى حق للقوة. وغني عن البيان التذكير أن هذا التعارف لا يمكن أن يتحقق إلا بالمعرفة: معرفة الذات، ومعرفة الآخر، ومعرفة العالم، ولا يمكن كذلك أن يؤسس دون الإيمان المطلق بأن المعرفة قوة وأنها وحدها التي تبني الأمم وتحفظ هويتها.**

---

(١) إبراهيم نجم الأسود مؤرخ وشاعر وصحفي لبناني عاش بين عامي ١٨٥٥-١٩٤٠، شغل وظائف رسمية عديدة في عهد متصرفية جبل لبنان وتنقل بين الإدارة والقضاء وكرس حياته لخدمة لبنان موظفاً في مختلف إداراته أو باحثاً في تاريخه. أنشأ أول جريدة سياسية ظهرت في لبنان في تشرين الأول ١٨٩١ من مؤلفاته **ذخائر لبنان** (المطبعة العثمانية، بعبدا، ١٨٩٦)، **تنوير الأذهان في تاريخ لبنان**، أربعة أجزاء (بيروت، ١٩٢٥-١٩٣٥)، **ديوان شعر** (بيروت، ١٩٣٩)، **الرحلة الإمبراطورية في الممالك العثمانية**، الذي ظهر في بعبدا عام ١٨٩٨ والذي تعيد الهيئة العامة السورية للكتاب نشره.

مُقدِّمة

خيري الذهبي[1]

حين قام الإمبراطور الألماني، أثناء زيارته لدمشق بصحبة زوجته أوغستا فيكتوريا، بإبداء إعجابه بجسر صغير مقام على أحد فروع بردى أسفل الصالحية لم يكن يفعل إلا ما يتبدى مجاملة لطيفة من عاهل بحجم هذا الإمبراطور لمنشأة صغيرة في مدينة طرفية في إمبراطورية عجوز تكافح لتقف على قدميها أمام الإمبراطوريات الصناعية المصنعة الكبرى بريطانيا وفرنسا وروسيا.

هذا الإعجاب الذي أبداه الإمبراطور لهذا الجسر الصغير المسمى بالجسر الأبيض والذي ما نزال ندعو الحي والمنطقة التي كان موجوداً بها بالجسر الأبيض، هذا الإعجاب ترجمه الوالي ناظم باشا والحاشية، ورجال السلطان المرسلون لتقديم كل شروط الراحة للإمبراطور الضيف، ترجموه بتفكيك هذا الجسر الجميل حجراً

(١) بدأت الرحلة في الرابع عشر من شهر تشرين الأول العام ١٨٩٨م، وانتهت يوم السبت الواقع في الثاني عشر من شهر تشرين الثاني للعام ١٨٩٨م.

حجراً، ثم وضعه في صناديق و.. .. إرساله إلى برلين تحية لهذين الإمبراطورين السعيدين.

أما حين قام هذان الإمبراطوران بزيارة الجامع الأموي العظيم، وشاهدا ما يسمى بالخزنة، وهي غرفة من حجر جميل محمولة على أعمدة وكان يوضع فيها بيت مال المسلمين أيام كانت دمشق عاصمة للدولة الإسلامية، أموية، أم نورية أعني أيام نور الدين محمود بن زنكي، ولكن المدينية والعاصمية وبيت المال جميعاً غادروها إما إلى القاهرة المملوكية، أو إلى أسطنبول العثمانية تاركين المدينة للهامشية والتآكل الذاتي، ولولا – ربما – أنها كانت المحطة الأخيرة على طريق الحج، وكان الحجاج مضطرين إلى التوقف فيها ومصاحبة القافلة الماضية إلى الحج ضمن قافلة ما كان يسمى حينئذ بالحج الشامي، ربما لولا هذا الدور لاضمحلت إلى قرية، أو اندثرت كما اندثرت كثير من المدن التي تغادرها طرق القوافل.

المهم حين زار الإمبراطور المسجد الأموي، ورأى غرفة الخزنة التي لم تفتح لعدة مئات من السنين تساءل في براءة عما يمكن أن يكون في هذه الغرفة المختومة ضائعة مفاتيح الأقفال، فمن يحتفظ بمفاتيح أقفال لعدة مئات من السنين في مدينة مضطربة الأمن والإدارة، ما إن يغادرها غاز تتري حتى يأتيها غاز صليبي، وما إن يمضي الاثنان حتى يبدأ الغزو الداخلي في صراع المماليك على السلطة، ثم في صراع الولاة العثمانيين فيما بينهم، وفيما بين العاصمة أسطنبول.

تبادل المضيفون النظر، ثم أمروا بكسر الأقفال والأختام وحين كسرت وجدوا الغرفة خالية إلا من بعض المخطوطات والوثائق – الوقفية ربما – والمعاهدات التي لم يعد لها من قيمة بعد تغير الدول. وربما عثروا على بعض القطع النقدية في هذه الزاوية، أو تلك.

لم يتوقف الإمبراطور عن إبداء إعجابه، وسرعان ما ضمت المخطوطات والوثائق وبقايا دنانير الماضي وهمسات روائح التاريخ ومناديل عطر دماء الشهداء. جمعت كلها وقدمت هدية إلى الإمبراطور دون تساؤل ودون تردد. فقد كانت الرسالة القادمة من ولي النعم: أريد للإمبراطور أن يرضى.. وقد تسابق الجميع إلى جعله يرضى.

هذا الرضا المستحيل، وهذه الشهوة إلى الترامي على أقدام هذا العاهل الوافد إلى عالم الاستعمار متأخراً، فلقد سبقه إليها الإسبان والبرتغاليون والهولنديون قبل بضعة قرون، وسبقه الوافدون الأقوياء الجدد البريطانيون والفرنسيون والروس. وتضاءلت كعكة المستعمرات وكانت ألمانيا بعد توحدها وتصنيعها مفتوحة الشدقين، نهمة إلى مستعمرة ما، سوق ما، ولكن الذئاب التي سبقتها كانت تكشر مانعة الذئب الفتي من الاقتراب من الفريسة الشهية، وهكذا.. بدأ التقارب بين الإمبراطورية الشابة النهمة إلى كل شيء، وبين الإمبراطورية العجوز التي تعجز أسنانها عن أكل ما يقدم إليها مسلوقاً وممضوغاً فالمعدة كانت أضعف عن استقبال كل هذا الطعام.

قبل حوالي نصف قرن من هذه الزيارة التي تمت في العام ١٨٩٨م كانت الإمبراطورية العثمانية العجوز، مع ضرتها المصرية التي عجزت عن إتمام مشروعها الكبير في تحديث الشرق حين منعتها الإمبراطوريات الأوروبية المتحالفة من إزاحة الفحل العجوز مهشم القرون والحلول محله، كانت الإمبراطورية العثمانية مع (الولاية) المصرية تحت حكم محمد علي قد وحدا الأسطولين لمحاربة تحالف الأساطيل الأوروبية الساعية إلى تحرير اليونان من الإمبراطورية العثمانية، وكانت معركة نافارون الشهيرة والتي دُمِّر فيها الأسطولان

العثماني والمصري، هذه المعركة التي سيعلق عليها الاستراتيجي الأميركي شليستغر بعد حوالي قرن ونصف، فيقول: بعد معركة نافارون فقد الشرق قراره السياسي وأصبحت قراراته السياسية في يد عواصم الغرب.

بعد معركة نافارون، وإعادة النمر المصري – الجيش، القوة الصاعدة إلى مصر وتحول هذه الجيش إلى قوة لا تعرف الدولة المصرية كيف تستخدمه، ثم وفاة إبراهيم باشا المأساوية في حياة أبيه، ثم وفاة محمد علي، ثم مجيء الورثة الضعفاء الذين استجابوا لتغرير القوى الأنغلوفرنسية في القيام بمغامرات عسكرية في إفريقيا، فتحوا بها إفريقيا السوداء – اللغز أمام العلماء والمستكشفين الأنغلوفرنسيين، ثم سلحوا أثيوبيا ودفعوها للحرب مع الجيش المصري وساعدوا في هزيمة الجيش المصري وعودته إلى مصر كسيراً بعد إفقاده عزة الجيش المنتصر على الشرق. أما نهاية الجيش المصري فكانت أشبه بنكتة سريالية، فقد استنجد الإمبراطور نابليون الثالث بصديقه الخديوي لإعانة ابن أخيه الإمبراطور مكسيميليان إمبراطور المكسيك ضد الثوار المكسيكيين، فأرسل الخديوي الهمام آخر ما تبقى من الجيش المصري العظيم إلى المكسيك ليهزم الجيش ويقتل مكسيميليان إعداماً، وينتهي الجيش المصري المنجد في غياهب النسيان، فليس من يعرف عمن مضى إلى المكسيك شيئاً إلا أنه مضى، ثم.. .. انقطعت أخباره.

كانت ألمانيا ما تزال مجزأة إلى عشرات الإمارات والدوقيات والإقطاعيات، وكانت بلا مستعمرات ولا أسواق ولا فرص عمل، فقرر بعض الألمان الأفراد والجمعيات إقامة استعمار (قطاع خاص) فشكلوا جمعية سموها أصدقاء القدس وكان على رأس هذه الجمعية

غوتليب هوفمان وكان ذلك في العام ١٨٥٤، وكان من مهام هذه الجمعية استيطان فلسطين (ولنلاحظ أن هوفمان لم يكن يهودياً، ولا صهيونياً، بل مسيحي ألماني) و.. استعمار فلسطين على يد الفائض البشري الألماني ووضع شعاراً لجمعيته (يجب إيجاد عمل للشعب الألماني).

قام هوفمان ومؤيدوه برحلات في أوروبا للدعوة إلى هذه الجمعية، وجمعوا التبرعات لها، ولما تعثر المشروع، وأخذت الانتقادات تلاحقه أعاد هوفمان تنظيم الجمعية تحت اسم جماعة الهيكل الألمانية (دعونا نتذكر جماعة الهيكل أثناء الحروب الصليبية) وعلينا ألا ننسى أن الحديث هاهنا عن ألمان جائعين إلى المستعمرات وإلى الأسواق، وإلى المجال الحيوي، ولم يكن الدين أمراً هاماً لهم كما لن يكون للصهاينة اليهود بعد نصف قرن.

أسست هذه الجمعية أول مستوطنة لها في فلسطين، وسمتها فالهالا[1] أي قاعة الأرباب التيوتون!! ثم سموا المستوطنة الثانية فيلهلما تبركاً باسم الملك الألماني فيلهلم، وصنعوا مجتمعاً استيطانياً منفصلاً عن المحيط العربي، وأصروا في أدبياتهم على أنه سيكون ممثلاً للمصالح الألمانية في المشرق، وأن ألمانيا ستقوم بحمايتهم.

أنشأت جمعية جماعة الهيكل علاقات وثيقة مع الجمعيات الصهيونية غير اليهودية المشابهة لها في أوروبة من أجل استعمار فلسطين، ومن أهم هذه العلاقات العلاقة مع هنري دوتان السويسري مؤسس الصليب الأحمر الذي كان قد أسس (جمعية العمل الدولي

---

(١) كتاب الرحلة الإمبراطورية، فصل الإمبراطور في حيفا، وراجع موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية الجزء السادس للدكتور عبد الوهاب المسيري.

من أجل تجديد فلسطين) والتي كانت تدعو إلى هيمنة مسيحيي أوروبة (أي الاستعمار الغربي) على فلسطين عن طريق الاستيطان السلمي المتسلل.

تحايل هوفمان وجماعته على الدولة العثمانية الرافضة لبيع الأراضي للأجانب في فلسطين بالشراء عن طريق وسيط عثماني، وهكذا بدأوا في العام ١٨٦٩ بإنشاء أول مستعمرة ألمانية في فلسطين تمتد من البحر وحتى جبل الكرمل، وقد بنيت على الطريقة الأوروبية، ثم نمت حتى وصل عدد سكانها إلى (٧٥٠) مستوطناً، ثم أنشأوا عدداً من المستعمرات الأخرى مثل مستعمرة يافا ١٨٧١، ومستعمرة ريفايم سنة ١٨٧٢، وكان نشاط المستعمرات زراعياً بالدرجة الأولى ثم اتجه المستوطنون كما فعل معمرو الجزائر، ومستوطنو فلسطين من اليهود المعاصرين إلى العمل بالتجارة متخلين عن الزراعة المرهقة للعمال العرب، ثم إلى الصناعة، فأنشأوا عدداً من الورش والمعامل حتى أصبحوا محور الحياة الاقتصادية في حيفا، وأدخلوا الأنشطة الثقافية إلى الحياة في المستعمرات كالأمسيات الموسيقية والمحاضرات، ثم النوادي الرياضية.

حافظ المستوطنون الألمان على علاقاتهم مع الوطن الأم، ولكن الحبل السري بينهم وبين الوطن أخذ بالجفاف بعد تحقق الوحدة الألمانية وتحسن الوضع الاقتصادي في ألمانيا، ثم حدثت مشادة بين مستوطن ألماني وعربي من الجوار، فقتل الألماني الفلسطيني، وثار الفلسطينيون، فهاجموا المستعمرة والمستعمرين، وقتلوا بعضهم، فاستنجد الألمان بالوطن الأم التي أرسلت بارجة حربية إلى شواطئ المتوسط تهدد وتتوعد، وكانت سابقة ألمانية، تدخلت السلطات

العثمانية إثرها وتراجعت الدولة الألمانية محرجة، فهي لا تريد لعلاقاتها مع الإمبراطورية العجوز ومشاريعها الاقتصادية فيها أن تتأثر، وتخلت عن المستعمرين الذين ما لبثوا أن أدركوا عقم مشروعهم فبدأوا بالانسحاب وحين جاءت الحرب العالمية الأولى اختفوا ليخلوا مكانهم للمستوطنين اليهود.

هذه الزيارة التي قام بها الإمبراطور ويلهلم وزوجته في العام ١٨٩٨ كان قد سبقها المناورات العظيمة والكثيفة التي قام بها بسمارك لتوحيد الإمارات والدوقيات والإقطاعيات وقد ختمها بحربه ضد فرنسا والتي انتهت بإسقاط الإمبراطور نابليون الثالث وإقناع أوروبة بالوافد الجديد الإمبراطورية الألمانية، ولكن ما إن جاء العام ١٨٩٠ وتوّج الأمير الشاب ويلهلم الثاني حتى أزاح بسمارك عن الحكم معلناً أن ألمانيا لا تحتمل إلا سيداً واحداً.

على الجانب الشرقي كان حلم محمد علي قد اندثر بالورثة الضعفاء وكان أسخفهم الخديوي إسماعيل الذي افتتحت قناة السويس في عهده فأقام تلك الاحتفالات الجنونية التي أضاعت أسهم مصر في القناة ومهدت للاحتلال الإنكليزي لمصر، وكانت الدولة العثمانية تنتقل من عثرة إلى عثرة، كانت تفقد البلقان قطعة إثر قطعة بعد فقدها اليونان، وكانت قد فقدت الدويلات الإسلامية على البحر الأسود والقرم.. .. وكان الناس في بلاد الشام وهذا ما يعنينا من كل هذه الكتابة مرعوبين إن عرفوا بما يجري، و.. .. سادرين في بحثهم عن لقمتهم اليومية، وعن أمنهم اليومي، وكان العالم الغربي يجري، يكتشف التكنولوجيا والإدارة والتخطيط، وكانت بلاد الشام.. تستعد لاستقبال الإمبراطور الألماني غليوم، أو ويلهلم، أو ويليام حسب اللغة المنطوق بها. وكانت قد استقبلت أباه

قبل تسع وعشرين سنة، وكان السلطان العثماني السابق قد وهبه أرضاً لإقامة كنيسة في القدس لمواطنيه البروتستانت وها هو ويلهلم الجديد يأتي، وكان من المتفق عليه أنه سيوهب قطعة أرض جديدة في القدس لإقامة كنيسة جديدة لمواطنيه الكاثوليك.

ما يلفت النظر في هذا الكتاب عن تلك الرحلة، ويبدو أنها كانت حصاة ألقيت في مستنقع السكون العثماني - اهتمام الناس الشديد بتلك الزيارة، اهتمام يفوق المتوقع من زيارة عاهل لأراضي عاهل دولة أخرى.. .. أكانت النخبة مدركة للمأزق السياسي - العسكري - المصيري للدولة العثمانية من حصار وسن سكاكين الغرب لاقتسام الكعكة العثمانية، فهم رأوا في زيارة الإمبراطور الألماني منقذاً، وأملاً وحليفاً حيث لا حلفاء للدولة العثمانية. أم أنهم أبدوا كل ذلك الحب والاهتمام هرباً من ضجر أمة لم تعرف لقرون نصراً، أو فرحاً حقيقياً، وكل ما عرفته لقرون هو الغزو الخارجي، أو الداخلي، والدم الكثير المجاني الرخيص، دم أبناء يساقون لحروب لا يعرفون لها سبباً، وموت لا يفهمون له سبباً، إلا أن كلمات كبيرة كانت تلقى، وكانوا يتظاهرون بالفهم. كانوا يهربون من الجندية، وكانوا يسمونهم بالزورياوات ج زوريا. وزوريا تعني الفراري - الهارب من الخدمة العسكرية، وما تزال مدن الشام وريفها تحفل بالعائلات التي تحمل اسم بيت الزوريا أو الزريا، وكان هذا هو الحد الأقصى من المقاومة التي يملكونها.

جاءتهم النجدة للتغيير أيام إبراهيم باشا بن محمد علي، ولكن القلة من فهمت القفزة الحضارية التي حملها، وكان من سوء حظ الشرق كله موت إبراهيم باشا المبكر، واضطرار القوات المصرية إلى الانسحاب إلى مصر.. .. كانت أمة قد خلفت العسكرية الوطنية

وراءها منذ قرون، ففاجأها إبراهيم باشا بهذا الاختراع الجديد، فصدمت ولم تستجب.

وصل الإمبراطور الألماني وزوجته إلى إسطنبول فاستقبلهما السلطان العثماني، وقدم الهدايا والأوسمة، واستقبل الهدايا والأوسمة. ولكن شتان ما بين قيمة هدايا كل طرف، فهدايا الألماني رموز وأوسمة، وهدايا العثماني قيم مالية خارقة، وسيتكرر هذا الأمر في حيفا والقدس وبيروت ودمشق، وسيتكرر حتى أيام الخديوي إسماعيل، وشاه إيران، واحتفالات بيرسيبوليس، وهدايا أمراء الخليج وملوكه. والسؤال: هذا الكرم.. ما معناه الحقيقي، أهو شكل من أشكال الاسترضاء، أم أنه الكرم، ولو كان الكرم، فلم لم يتبدَّ تجاه أبناء الشعب العاديين.

على أية حال.. وصل الإمبراطوران، وهاج الشعب في كل مدينة دخلاها، وحصلت حكايات كثيرة سنقرؤها في متن الكتاب، ولكن ما يلفت النظر بشدة كثرة الصحف في ذلك الوقت المبكر في حيفا القدس ودمشق وبيروت. هل يتطابق هذا مع ما علمناه طويلاً عن الجاهلية التي كان يعيشها الناس قبل وصول الاستعمار الغربي إلى بلادنا. وما يلفت النظر أيضاً القصائد الطويلة والكثيرة التي كتبت في تحية الإمبراطور الألماني. صحيح أن حصيلة الشعر فيها قليلة، ولكنه النظم الكثير، والشعراء الكثيرون، أكان في بلاد الشام كل هذا العدد الكبير من الشعراء.

سأختار بعضاً من هذه الأشعار وسأسجل أسماء كل أولئك الشعراء الذين كتبوا القصائد في الترحيب والمديح للإمبراطورين ولن أنشر كل القصائد حتى لا أثقل على القارئ.

وختاماً.. .. من حق من ساعدونا على العمل على هذه السلسلة الشكر العميم وأخص منهم:

السيد وزير الثقافة.

والسيد المدير العام للهيئة العامة السورية للكتاب.

والأستاذ أحمد المفتي الفنان والخطاط والباحث في التراث العربي والإسلامي.

والأستاذ عبد الرحمن الحلبي الناقد والباحث والإعلامي المعروف.

والسيدة رحاب داوود أمينة مكتبة المتحف الوطني التي قدمت كل ممكن للمساعدة على إنجاز هذه المجموعة من الكتب المقدمة تحية إلى دمشق بمناسبة صيرورتها عاصمة للثقافة العربية .

خيري الذهبي

إضافة صغيرة

سنجد في النص بعض المصطلحات العثمانية ذات الأصل العربي والصيغة التركيبة مثل:

عزتلو : وتعني صاحب العزة بمصطلحنا الجديد.

رفعتلو : وتعني صاحب الرفعة.

فخامتلو: وتعني صاحب الفخامة.

دولتلو : وتعني صاحب الدولة.

سعادتلو: وتعني صاحب السعادة.

فتوتلو : وتعني صاحب الفتوة.

فضيلتلو: وتعني صاحب الفضيلة.

أبهتلو : وتعني صاحب الأبهة.

وأترك الباقي لفطنة القارئ.

لمحة

في تأريخ الإمبراطورين العظيمين

كلٌّ يعلم أن زائرنا الأثيل المجد هو سليل تلك الأسرة الطائرة الصيت في الآفاق «وهنزولرن» التي ورثت العرش البروسيوي كابراً عن كابر ورسَّخت قواعدها في تلك المملكة العظيمة بما أخذت على نفسها تلك الأسرة النبيلة من أن تجعل حياة أفرادها حياة جندية محضة قدوةً لجميع أفراد رعيتها الباسلة النشيطة التي تؤَلف اليوم زهاء ثمانية وعشرين مليوناً من الناس، وتشغل ما يربو على ثلاثمائة وثمانية وأربعين ألف ميل مربع من الأرض.

وما من أحد يجهل أن ويلهلم الأول جد هذا القيصر الخطير قد ضم سنة ١٨٧٠ شتات الممالك الألمانية(١) المتفرقة إلى وحدة دعيت

---

(١) إن الممالك الألمانية منقسمة إلى ٢٦ إدارة وإمارة وهي، بروسيا وباوبره، وساقس وورتمبزغ، وبادبيوك، وهس، ومكلنببورغ اشولن، ومكلنبورغ استرليج، وساقس وإيمار، واولدنبرغ، وبرونسويق، وساكس مانينكن، وساكس والتنبوغ، وساكس فوربورغ وغوته، وانهلمت، واشوار جيبورغ سوندسهاوزن، واشوار جيبورغ رودلستاد، ودكدك. وريس الكبرى، وريس الصغرى، وشومبورغ ليبه، وليبه، ولوبك، وبرمه وهامبرغ، والساس ولوران ، =

بالإمبراطورية الألمانية كان هو رأسها ونور نبراسها، فأصبح عاهلاً تعنو له ستة وأربعون مليوناً من الناس يأهلون خمسمائة وأربعين ألف ميل مربع من البسيطة وكان ذلك عقيب انتصار سيدان المشهور.

إن قران الإمبراطور بقرينته الممتازة السجايا لم تخلُ في مبدأ الأمر من غرض سياسي وذلك أن أباها كان قد نزعت من يده مملكته بسعي مملكة بروسيا، فكان من نتيجة ذلك نفرة بين الأسرتين، فاتخذ هذا القران ذريعة لإزالة ما بينهما من أسباب النفرة والجفاء، وتوثيق عرى المحبة والإخاء إذ ترك والد الإمبراطورة على إثر ذلك حقوقه في عرش شلسويغ بتمامها إلى تاج بروسيا.

في أثناء سنة ١٨٧٨ شخص البرنس ويلهلم إلى بلاد الإنكليز رغبة أن يزور جدته الملكة فيكتوريا، وفي أثناء تلك الزيارة رأى الأميرة أوغسطا فكتوريا في لندن، فاستحسنها، والاستحسان أول درجات الحب والأميرة ولدت في ٢٢ تشرين الأول سنة ١٨٥٨ في قصر (رولزيغ) حيث ربيت في حجر والدها، ونشأت على مبادٍ[1] من التربية كريمة.

= والإمارات الأربعة الأخيرة منها مستقلة بإدارة خاصة بعضها ملكية وبعضها إمارات فلما تمت الوحدة الإمبراطورية أصبح الجميع مرتبطين بالخضوع إلى عرش هوهنزلرن وسليلهم وخلفهم الآن هذا الإمبراطور العظيم.

(١) مباد = مبادئ.

وبعد عام من تلاقي الأميرين في لندن ذهب ويلهلم إلى قصر بركينا حيث يقيم أبوها معتزلاً وهناك استكنه ما رام الوقوف عليه والإحاطة به من مفردات أحوال من شاء أن يتخذها له قرينة، ثم كاشف أباها بما تركت في فؤاده نظرة لندن. واستقرّ رأيهما على الازدواج ولدى عودته إلى برلين أسرَّ إلى أبيه، وجده العظيمين ما عقد النية عليه، فاستصوبوا رأيه، وإذ أكد الإمبراطور جده، والبرنس بسمارك وزيره أن هذا القران ينطبق على مصلحة المملكة احتفلا رسمياً بعقد القران في شتاء سنة ١٨٨١ ومن ذلك العهد إلى أن استأثرت رحمة الله بالعاهل فريدريك أبيه كانت حياة الأمير (ويلهلم) حياة عسكرية بحتة.

وقبل وفاة أبيه ذهب ويلهلم غير مرة إلى (سانرامو[1]) لعيادة أبيه، ثم قضى أياماً في العاصمة (برلين)، ولما توفي جده، وتُوّج أبوه إمبراطوراً سمي (ويلهلم) وكيلاً في أثناء مرض أبيه، ولما توفي تبوأ أريكة الإمبراطورية، وزيّن رأسه تاجها الرفيع.

إن زائرنا الإمبراطور أصغر من الإمبراطورة بسنة وثلاثة شهور، فإنه في كانون الثاني الآتي يستوفي التاسعة والثلاثين من سنيه السعيدة والإمبراطورة قد استوفت السنة الأربعين في ٢٢ تشرين الأول الماضي وهي بقصر يلدز العالي على ما سيجيء.

إن هذا الإمبراطور العظيم نشأ مفتوناً بشيم الحضرة العلية السلطانية التي أجمعت ملوك الأرض فضلاً عن أفراد أهليها على

---

(١) سانرامو = سان ريمو.

حبه. وهذا ما حدا به أن يعود إلى العاصمة العثمانية العلية هذه المرة أيضاً قبيل أن يبدأ بسياحته في فلسطين وسوريا وهذا كان أيضاً من موجبات تنافس العثمانيين عموماً بإكرام هذا القادم العظيم، واجهاد الفكر، والقوى في ابتكار أنواع التجلات، والإعظام وتهيئة معدات السرور والهناء لزائرهم السامي المقام. أجل إن الشرقيين في كل مكان وزمان قد أثبت لهم التاريخ الامتياز بإكرام الزائرين، وحسن الضيافة على أن الأسباب التي أتينا على بيانها من شأنها أن تعزز هاته المنقبة الجليلة في أفرادهم، وتحملهم اقتداءً بسلطانهم، وولي نعمتهم مولانا السلطان عبد الحميد خان الغازي على بذل النفائس والنفوس في سبيل إظهار ما يرويه عنهم التاريخ الحق من مآثر الضيافة.

إن هذا الزائر العظيم القدر والرفيع المكانة قد غادر مقر عرشه، ومعه قرينته النادرة المثال في مصاف الجنس الموصوف بأنه بهجة عالم الحس، ومظهر تجليات الأنس في هذا الكون بما ازدانت به من باهر السجايا، وحسن الخلال، وأتى على اليخت (هوهنزولرن)[1] تخفره القاطعتان (هرتا)[2] و(هيلا)[3] فقدما

---

(١) إن هذه الدارعة غاية في الترتيب والانتظام الداخلي وقد ازدانت بأحسن الرياش وأثمنها وطولها ٣٦٠ قدماً و٦ بوس وعرضها ٤٥ قدماً واحد عشر بوس ومعدل قوتها يوازي قوة ٩٤٦٠ حصاناً وهي ذات آلتين بخاريتين، وتقطع في الساعة ٢٢ ميلاً وعدد بحارتها بين ضباط وأنفار ٣٠٧ وقد تجدد إنشاؤها سنة ١٨٩٢ مسيحية، ودعيت باسم (هوهنزولرن)، وخصت لركوب جلالة الإمبراطور. =

البندقية، وبعد أن تلاقيا هنالك مع العاهلين الايتاليين بارحاها ماخرين عباب البحار إلى (الأستانة) مقرّ السؤدد والفخار، فبلغاها في يوم الثلاثا ثامن عشر تشرين الأول حساباً غربياً.

❖ ❖ ❖

جلالة الإمبراطور مقبلاً على دار السعادة

في يوم الجمعة مساءً رابع عشر تشرين الأول خرجت الدارعة العثمانية «آثار توفيق» بإمرة عزتلو رستم بك، والبارجة العثمانية «إجلالية» بإمرة رفعتلو مصطفى بك ماخرتين من الترسانة العامرة استقبالاً للإمبراطورين العظيمين وهما ظاهرتان بمجالي الزينة الأنيقة تحوم عليهما الأعلام خافقة خفوق القلب الطروب لذلك

= وهي تحتوي على قاعات، وغرف مخصوصة بجلالة الإمبراطور، والإمبراطورة، وبحضرات الأمراء، والأميرات من العائلة الملوكية، وسائر أركان المعية الإمبراطورية والضباط وتنار من الداخل والخارج بمصابيح كهربائية عديدة، ومدافعها خمسة عشر مدفعاً.

(٢) (هرتا) طول هذه الدارعة ٣٤٤ قدماً و٦ بوس وعرضها ٥٧ قدماً، وقد أنشئت سنة ١٨٩٧ ومعدل قوتها توازي قوة (١٠٠٠٠) حصان، وتقطع في الساعة ٢٠ ميلاً بحرياً.

(٣) (هيلا) تعد هذه السفينة من ذوات الدرجة الثالثة وطولها ٢١٧ قدماً وعرضها ٣٦ قدماً، وقد أنشئت سنة ١٨٩٥، ومعدل قوتها يوازي قوة ٥٨٦٠ حصاناً، وتقطع في الساعة ٢٠ ميلاً بحرياً.

اللقاء الكريم وقد أخذت جنودهما تهتف وهم على الساريات «بادشاهم جوق يشا» على نغمات الموسيقى باللحن الحميدي الشجي وجميع السفن الراسية هنالك رفعت أعلامها إيذاناً بالتحية.

وفي صباح اليوم الثاني «مخر اليخت العثماني عز الدين» من مياه الأستانة العلية يقلُّ الهيئة[1] التي تعينت للاستقبال في القلعة السلطانية، ثم لحقت به الباخرة لورلي[2] تقلُّ حضرة البارون مارشال سفير ألمانيا في الأستانة يصحبه ترجمان السفارة القونت مولنين، ونحو مئة واحد من الضباط الألمان، والحرس الإمبراطوري الذين كانوا أتوا إلى الأستانة العلية ليسيروا مع جلالته إلى القدس الشريف، ولدى بلوغ اليخت المشار إليه فنار (كبز) في البحر الأبيض صادف الدارعتين الهمايونيتين »حفظ الرحمن« و»نجم شوكت« قادمتين من سلانيك للاشتراك بالاحتفال باستقبال جلالتهما. على أن كثرة الأنواء قضت على اليخت هوهنزولرن بأن يرسو في ميناء (زانته) بضع ساعات، فتأخر وصوله عن الوقت المعين.

---

(١) إن الهيئة الاستقبالية المشار إليها مؤلفة تحت رئاسة حضرة دولتلو سعيد باشا رئيس شورى الدولة من كل من حضرة أصحاب الدولة توفيق باشا ناظر الخارجية، وطرخان باشا أحد أعضاء الدائرة الملكية بشورى الدولة، وسليم ملحمه باشا ناظر الأحراش والمعادن، وشاكر باشا مشير الأركان الحربية بالمعية السنية الملوكية، وقمبفنر باشا الياور الأكرم للحضرة السنية السلطانية ومن حضرة صاحب العطوفة إبراهيم بك تشريفاتي الخارجية، ومن كل من أصحاب السعادة أحمد علي باشا الفريق واحد الياوران، وتوفيق باشا سفير الدولة العلية في برلين، وناصر باشا الميرلوا، ومن كل من حضرة صاحبي العزة سامي بك (قائمقام في سفارة برلين) ومعاونه أنور بك.

(٢) هي باخرة السفارة الألمانية في الأستانة العلية.

وبعد الظهر بنحو ساعة بلغ اليخت «عز الدين»، والباخرة (لورلي) فنار «الخلاص» حيث شوهد اليخت «هوهنزولرن» وبعد تبادل السلام تقدمت الباخرة «لورلي» نحوه، ثم صعد حضرة السفير، وعرض لجلالته عن الهيأة الاستقبالية المشار إليها، ثم بعد أن رفعت الأعلام العثمانية من اليخت الإمبراطوري، ومن الدارعة «هيلا»، ومن الباخرة «لورلي» استقدم جلالته الهيأة الاستقبالية، فتمثلت لديه بالبزات الرسمية، وكان جلالته حينئذٍ في وسط الباخرة وهو مرتدٍ بدلة بحرية بيضاء، وعلى رأسه قبعةً بيضاء، فتقدم حضرة صاحب الدولة سعيد باشا، وبلَّغ جلالته تحية حضرة السلطان الأعظم، فتلقاها بالسرور والشكر، ثم ذهبوا إلى حيث كانت جلالة الإمبراطورة التي كانت متدثرة بثوب أصفر ضارب إلى الحمرة وعلى رأسها قبعة كتب عليها «هوهنزولرن»، وتقدموا إليها بواسطة تشريفاتي جلالتها البارون مرباح، وبعد إبلاغ جلالتها السلام السلطاني، وإظهارها الشكر والامتنان قدم حضرة عطوفتلو إبراهيم بك تشريفاتي الخارجية البرنامج السفري إلى الكونت دولنبرغ تشريفاتي الإمبراطور، ثم عاد الوفد المشار إليه بزورق أمر جلالته بإعداده لرجوعهم، ثم مخرت المدرعات والبواخر عباب البحر، ولما بلغ اليخت الإمبراطوري استحكام «قوم قلعه» أطلقت المدافع منه، ومن استحكام «سد البحر»، ورفعت الأعلام العثمانية، والألمانية، وقبيل الغروب بنحو ساعة بلغت «جناق قلعة»، فأطلقت المدافع من جميع القلاع حيث كان عدد عديد من العساكر الظافرة، ولما بلغت ميناء «نعره» صاحت العساكر التي كانت على المدرعات العثمانية (الحميدية) و(المسعودية) و(نجم شوكت) و(حفظ الرحمن) المزدانة بالأعلام (فليحي الإمبراطور) وأطلقت المدافع من

الاستحكامات العثمانية، وكانت الباخرة (هيلا) تقابلها بالمثل، ثم انطلقت السفن جميعاً إلى بحر «مرمره»، وفي صباح اليوم الثاني بلغت «قوم قبو». وكان هنالك على ظهر البحر مئات من السفن البخارية والزوارق تقل من الناس من يعدُّون بالألوف وفي جملتهم ألفان من التبعة الألمانية مع تلامذة المكاتب الألمانية الذاهبين برئاسة الموسيقي المسيو لانكه، ولما مرّ اليخت قبالة القشلة الهمايونية حيته بإطلاق المدافع، فقابلتها الدارعة (هرتا) بالمثل، ثم رُفع العلم العثماني من اليخت (هوهنزولرن).

❖ ❖ ❖

الإمبراطور في ثغر الأستانة العلية

لما بلغ اليخت هوهنزولرن والسفن الأخرى ثغر الأستانة العلية عند الساعة ٩ صباحاً ألقت السفن مراسيها حيث كان هنالك الزورق السلطاني يقلُّ كلاًّ من حضرة صاحبي الدولة حسني باشا ناظر البحرية، وفؤاد باشا من ياوري الحضرة السنية السلطانية، ثم نزل جلالة الإمبراطورين إلى الزورق المخصوص لركوبهما، وكان بأثناء ذلك قد سار إلى قصر (طولمه بغجه) حضرة سيدنا ومولانا السلطان الأعظم على عربة وأمامه حضرة صاحب الدولة عثمان باشا الغازي وما كاد يصل زورق جلالة الإمبراطورين إلى الرصيف حتى أقبل عليه عظمة مولانا الأعظم بملابسه الرسمية مطوقاً بقلادة (هوهنزولرن)، وأخذ بيد جلالة الإمبراطورة، وأصعدها إلى البر، ثم صافح جلالة الإمبراطور، وعند ذلك أطلقت المدافع من

البر والبحر إجلالاً وتكريماً، وعزفت الموسيقى بالنغمين الحميدي والألماني، وهتفت الجنود بالدعاء، وكان الإمبراطور حينئذٍ مرتدياً رداء (الاي الهوسار) من الحرس الملوكي وعلى رأسه قبعة بيضاء مختصة بالأمراء البحريين، ويتلألأ على صدره وسامات خاندان آل عثمان، والافتخار المرصع، والامتياز، وهوهنزولرن، أما الإمبراطورة، فكانت لابسة ثياباً وردية اللون، وقبعة بيضاء، وعلى صدرها وسام الشفقة، وبعد أن استراحا قليلاً، وقدمت لهما المرطبات ركب مولانا السلطان الأعظم عربةً تجرها أربعة جياد من الخيل وعن يمينه جلالة الإمبراطورة، وأمامها حضرة دولتلو منير باشا ناظر التشريفات العمومية، وركب جلالة الإمبراطور عربة مثلها، وأمامه فخامة الصدر الأعظم، وحضرة دولتو المشير فؤاد باشا الياور السلطاني الأكرم، ووراءهم عربات أخرى تقل البرنسات، والحاشية الإمبراطورية، وقرينة حضرة سفير دولة ألمانيا في الأستانة، والمسيو بيلوف وزير الخارجية الألمانية، وأمامهما حضرة معاون التشريفات، وغيرهم من الكبراء، والوزراء، والياوران الكرام، وكانت العساكر السلطانية فرساناً ومشاةً على جوانب الطرق من مدخل سراي «طولمه بغجه» إلى سراي «يلدز» السلطانية، والموسيقى الشاهانية تصدح بالأنغام الشجية، والعساكر المظفرة، والألوف من الأهلين يهتفون بالدعاء إلى أن بلغوا قصر يلدز حيث نزل جلالتهما في الدائرة[1] التي خصصت لاستقبالهما، وبعد أداء مراسم السلام عاد

---

(١) إن الدائرة المخصصة لنزول جلالتهما أنشئت كجناح أيمن للسراي العامرة يبلغ مقياسها ألفي متر وطولها نحو ستة وأربعين متراً، وقد خصص منها لجلالة الإمبراطور والإمبراطورة ١٤ قاعة، والباقي لحاشيتهما، ومن ذلك بهو فسيح (صالون) يبلغ طوله ١٢٠ متراً في عرض ١٥ متراً فرش كله =

الجنـاب العـالي السلطاني إلـى قـصره، فـرد جلالـة الإمبراطـورين الزيـارة لعظمتـه، وقـد كـان جلالـة الإمبراطـور مرتـدياً حينئـذ بحلتـه الرسمية، وعلـى رأسـه التـاج الإمبراطـوري، وقـد قـدم الإمبراطـور إذ ذاك لعظمته أركان المعية الإمبراطورية، وكان حينئذ حضرة صـاحب الدولة منير باشا ناظر التشريفات العمومية يقوم بوظيفـة الترجمـة،

= ببساط واحد مـن أجمـل وأبـدع أنـواع البسط العجميـة التـي فاقـت في صناعتها به فابريقة أركله الهمايونية، ويكفي في وصف هذا البساط الذي لا يوجد لـه مثيـل في العـالم كلـه أن قـد اشـتغله ألـف صـانع في ظـرف سـنة كاملة، وقد فرش هذا البهو ككل القصر بأفخر أنواع الأثاث والرياض التـي كانـت مذخورة منذ عهد سـاكني الجنـان السلطان عبـد المجيـد، والسلطان عبد العزيـز ممـا لـو جمـع كلـه في متحـف واحـد لكـان مـن أجمـل، وأجمـل المتاحف الأثرية الثمينة. ويقدر ثمن الكرسي الواحد مما هو في البهو الكبير بألف ليرة على الأقل، ومثل ذلك أو أكثر الستارة الواحدة، وفي هـذا مـا يبين للقـراء مقـدار مـا يحتـوي عليـه هـذا القـصر مـن نفـائس الـذخائر، وبـدائع الريـاش الفـاخرة، وإن أنفـس شـيء في هـذا القـصر ثـلاث ثريـات علقـت في سـقف البهـو الكبيـر لا تقـدر أحـداها بـثمن لأنهـا ليـست مـن البلـور، بـل مـن أنفـس أنـواع الجـواهر الكريمـة مـع مـا جمعـت مـن إبـداع الـصناعة، وحـسن التـأليف والترصـيف بـين ألوانهـا. قيـل ولا يوجـد مثلهـا في متحـف أو سـراي ملوكانية غرباً وشرقاً.

وفي وسط البهو الكبير قد قامت زهرية كالأسـطوانة الـضخمة أكبـر مـا رأى الراؤن من نوعها الصيني، أو الياباني، ولكنها مصنوعة في المعمـل الحميـدي الخـاص بيلـدز العـامرة، وقـد نقـشت علـى جوانبهـا صـور وقـائع الحـرب العثمانيـة اليونانيـة علـى أحـسن مثـال. والخلاصـة أن هـذا القـصر الجديـد الذي أنشئ لضيافة جلالـة الإمبراطـور قـد حـوى مـا لـم يحـوه أعظـم قـصر ملوكـاني في العـالم مـع زخـرف جميـل، وصـناعة فائقـة في الـنقش والطـلاء سـلمه وواجهتـه كلهـا مـن المرمـر الأبـيض الناصـع يخيـل لكـل مـن يـراه أنـه في حلم.

ثم إن عظمته قدم لجلالتهما بالقاعة الكبرى الوكلاء الفخام وأركان المابين الهمايوني، وكانت بأثناء ذلك الموسيقى الهمايونية تصدح بالألحان الألمانية، وبعد ذلك عاد الإمبراطوران إلى الدائرة المخصصة لنزولهما، وعند الظهر سار جلالتهما بموكب حافل قاصدين دار السفارة الألمانية لمناولة طعام الغدا، فسارا على عربة تجرها أربع أفراس من العربات السلطانية يتبعها عربات تقل المهمندار حضرة دولتلو شاكر باشا، والمشير دولتلو قمبفنر باشا، والفريق سعادتلو أحمد علي باشا، وسعادتلو يعقوب باشا من ياوري الحضرة السنية السلطانية، وكل من عزتلو الميرالاي شاكر بك، والمير الاي مصطفى ناطق بك، وكل من عزتلو جواد بك، وعزتلو ثريا بك، وعزتلو محمود علي بك، وكل من البيكباشية أصحاب الرفعة إسحق بك، وأحمد بك، وفؤاد بك، وكل من القول أغاسيين، فتوتلو أنور بك، ونجيب بك، وجاويشية المعية السنية فؤاد بك، وصلاح الدين بك، ومقداد بك، ومحمود بك، وفرقة من فرسان أرطغرل حاملي الرماج.

❖ ❖ ❖

ضيافة سفارة ألمانيا

لما كانت الساعة ٣٠ دقيقة بعد الظهر وصل جلالة الإمبراطورين إلى سفارة دولة ألمانيا في محلة (أياس باشا) محفوفين بمن تقدم ذكرهم من كبار المأمورين العثمانيين، والفرسان حيث أعد لجلالتهما ضيافة حافلة من قبل البارون مارشال سفير ألمانيا، وكان من جملة المدعوين كبار أركان ومأموري السفارة، والقونصلاتو الألمانية، وكانت

الموسيقى تصدح حينئذٍ بأطيب الأنغام، وبعد الطعام قدَّم حضرة السفير المشار إليه لجلالتهما سائر أركان السفارة، والقونصلاتو، والمأمورين العثمانيين من الألمان، فقابلاهم بما عهد بهما من اللطف.

ثم تقدمت لجلالتهما الهيئة المؤلفة من تسعة ذوات من الألمان(١)، ونائب معلمي المكتب الألماني وهو المسيو البرت لينوبوا عن التبعة الألمانية بمظاهر الترحيب والاحتفاء، فقابلاهم أيضاً ببشاشة مظهرين سرورهما من الاتحاد العظيم الكائن بين الدولتين العثمانية، والألمانية. وبعد ذلك تمثل لدى جلالة الإمبراطورة بعض سيدات من التبعة الألمانية، فحدثتهن بما شفَّ عن رضاها ثم خرجا إلى شرفة السفارة المطلة على البحر حيث كان فريق من الجالية الألمانية يتغنون بالأغاني الوطنية الألمانية وفي جملتها نشيد «أوجير» الذي وضعه حضرة الإمبراطور، وكانت الموسيقى المعروفة بموسيقى هاندور كرافريه تصدح بأطيب الأنغام برياسة الموسيقى الشهير ابول لينكه، فأثنى جلالته على مديري هذه الحفلة.

وعند الساعة الرابعة شخص جلالتهما لزيارة المدرسة الألمانية التي كانت لابسة ثوباً بهياً من الزينة، ولدى وصولهما هتف الطالبات بالدعاء، ثم تقدم لهما طاقة من الأزهار من يد الآنسة ميني كريمة الدكتور «شواتلا» مدير المدرسة وقد تلت لديهما قصيدة بالألمانية ضمَّنتها الترحيب فاستمثلتها حينئذٍ جلالة الإمبراطورة، ولاطفتها، وبعد أن طاف جلالتهما في غرف المدرسة، وسمعا من أفواه الطلبة

---

(١) هم كل من المسيو غروسفلدج، وفونكاب. وكوستاو، وولفين ويوب، وهيرجل، وولكمان، وتيليخ، وشمريخ.

كثيراً من الأناشيد، وفي جملتها النشيد الحميدي العالي شكرا ما شاهدا من الإتقان في المدرسة، ومن نجابة الطلبة، وخصا بالشكر كلاً من المسيو ولغينغ ودرينغ وقابه وعادا محفوفين بالتكريم والتعظيم إلى مقرهما العالي، وبعد أن مكثا ريثما استراحا سارا بموكب عظيم حافلٍ إلى قصر يلدز لمناولة طعام العشاء على المائدة السلطانية السنية.

❖ ❖ ❖

ضيافة قصر يلدز العالي

ما أقبل جلالتهما على قصر يلدز العالي حتى وافتهما الحضرة العلية السلطانية إلى ردهة الاستقبال، فمكث عظمته، وجلالتهما يتجاذبون أطراف الأحاديث، وعند الساعة ٧ مساءً جلسوا على مائدة الطعام الفاخرة المؤلفة من ثلاث دوائر، فتصدر في أولاها حضرة صاحب الشوكة والاقتدار مولانا السلطان الأعظم، وإلى يمينه جلالة الإمبراطورة، وإلى يساره جلالة الإمبراطور، واستوى يمنةً ويساراً كل من حضرة فخامة الصدر الأعظم خليل رفعت باشا، والكونتس بروكدروف مديرة قصر الإمبراطورة، ودولتلو رضا باشا ناظر الحربية، وعقيلة الموسيو تستا ترجمان السفارة الألمانية الأول، والكونت ولنبورج مدير القصر الإمبراطوري، والبارونة مارشال عقيلة سفير ألمانيا، والموسيو بيلوف وزير خارجية ألمانيا، وحضرة دولتلو عبد الرحمن باشا ناظر العدلية، والكونتس فون كلر إحدى نساء الشرف، والبارون مارشال سفير ألمانيا، والمدموازيل

كواسدورف، ومدام سكورز، ودولتلو عطوفتلو السر عسكر، والجنرال دوهنكي، ومدام موركن، ومدام موليج، ودولتلو عثمان باشا الغازي، ومدام قمبفنر باشا، وحضرة دولتو ناظر البحرية، ومدام رافأوف بك، والمسيو دولوكانوس، ومدام هوفا باشا، والبارون دي مرياح، ومدام غروميكوف، وحضرة دولتلو سعيد باشا ناظر شورى الدولة، والجنرال دوبلاسن، ودولتلو توفيق باشا ناظر الخارجية، والبارون لينكر، وحضرة دولتلو ناظر الداخلية، والدكتور إيتهولد، وحضرة دولتلو مشير الطوبخانة، والبارون سدمبيبران، وحضرة دولتلو ناظر الأوقاف، وجلس على الدائرتين الثانية والثالثة رجال الحاشية الإمبراطورية، وموظفو المابين الهمايوني، والبعض من معتبري الأجانب حتى بلغ عدد المدعوين ليلتئذٍ مائة وخمسين وقد طال مكثهم على المائدة إلى الساعة ٩، وكانت الموسيقى السلطانية تصدح بما يشجي الأسماع، أما خدمة المائدة، فكانوا خمسين شخصاً مرتدين ألبسة من الجوخ الأحمر المزركشة بالقصب، وبعد ذلك أقبلت الحضرة العلية السلطانية، وجلالتهما إلى القصر السلطاني، وشاهدوا الألعاب النارية، والزين الباهرة، وما زالوا يسرحون رائد الطرف في تلك المناظر البهجة حتى منتصف الليل.

❖ ❖ ❖

الزينات والألعاب النارية

كان صرح يلدز في تلك الليلة الزاهرة متشحاً بأبهى حلة من الزينة إذ كانت تتدفق منه الأنوار المتلألئة تدفقها من جميع الصروح

السلطانية، والدوائر الرسمية، والجنائن المجاورة لها، ومنازل النظار، وكبار المأمورين، وعلية القوم فضلاً عن الزين الباهرة، والأنوار الكهربائية التي قامت بها السفن العثمانية، والألمانية الراسية أمام قصر »طولمه بغجه«، وبالجملة فإن دار السعادة كانت ليلتئذٍ لابسة من الأنوار حلة بديعة، وقد جرت ألعاب نارية في غالب الشوارع تمثل أنوارها التاج الألماني، وهذه الكلمات (بادشاهم حوق يشا) باللغة التركية، أما بالألمانية فمامعر به (ليحي جلالة الإمبراطور غليوم)، وقد كان شاطئ البوسفور مزيناً من الجهتين بزينة باهرة أنيقة يشبه شعلة من النور تنعكس على صفحات المياه، فتزيد المنظر بهاءً وجمالاً، وكانت الخلق في تلك الجهة كالبنا المرصوص يهتفون بالدعاء لعظمة السلطان الأعظم، ولجلالة الإمبراطورين.

❖ ❖ ❖

الأربعاء في ١٩ تشرين الأول
ركوب الزوارق البخارية

في صباح هذا اليوم ركب جلالة الإمبراطور عربية يجرها إثنان من جياد الخيل، وذهب إلى طولمه بغجه حيث ركب من هناك زورقاً من زوارق القصر الشاهاني ذي أربعة عشر مجذفاً تحف به زوارق حاملة كبراء، ووزراء بطانته، وساروا جميعاً إلى ساحل الطوبخانة العامرة، وقره كوى مارين في خليج دار السعادة إلى أن وصلوا إلى أسكلة السلطان أيوب، ثم نزل جلالته من الزورق، وامتطى جواداً أبيض اللون، وجعل يطوف لمشاهدة أسوار الأستانة العلية، ومعاقلها

القديمة إلى أن وصل إلى (يدى قله)، ثم عاد إلى (أدرنه قبوسي) حيث ركب المركبة وتوجه إلى (السركه جي) من طريق الجامع الفاتح وإذ بلغ الأسكلة ركب الباخرة (تشريفيه)، وعاد إلى سراي (طولمه بغجه)، ومنها ركب إلى المقر العالي.

أما جلالة الإمبراطورة، فسارت على عجلة فاخرة إلى (طولمه بغجه) حيث ركبت الباخرة «هبر» الصغيرة، ومعها إحدى نساء الشرف، والبارون مرياح[1]، وأخذت تطوف على الشواطئ حتى بلغت قصر (بكار بك)، ثم عادت إلى مقرها العالي.

❖ ❖ ❖

مقابلة السفراء

لما كان جلالته قد أظهر ارتياحه بعد ظهر ذلك اليوم إلى قبول زيارة حضرة سفراء الدول الفخيمة جلس في قاعة الاستقبال في صرح يلدز العامر، وعند الساعة الواحدة بعد الظهر أقبل السفراء المشار إليهم، وهم كل من الموسيو زينوفيف السفير الروسي، والسير أوكتير السفير الإنكليزي، وحضرة عقيلته، والموسيو كامبون السفير الفرنسي، والبارون كليس السفير النمساوي وحضرة البارونة عقيلته، والمسيو بانسا السفير الإيطالي، وحضرة عقيلته، ومرزا

---

(١) إن البارون المشار إليه قد حضر إلى الأماكن المذكورة منذ نحو ثلاثين سنة مع المغفور له الإمبراطور فردريك والد جلالة الإمبراطور غليوم الثاني.

محمود خان السفير الإيراني، ولدى وصولهم تقدمت حضرة البارونة مارشال زوجة سفير ألمانيا، وحضرة ناظرة بلاط الإمبراطورة، وقدمتا لدى جلالتها كل سفير وزوجته على حدة، وبعد ذلك تقدم الكونت أولنبورج مدير القصر الإمبراطوري، وقدم لجلالته كلَّ واحد من السفراء، والبارون مارشال سفير ألمانيا في الأستانة يعرِّف جلالته بكل واحد منهم، وبعد أن مكثوا لديه مدة من الزمن كان جلالته يحدثهم بأثنائها بمواضيع شتى انصرفوا شاكرين مما لقيوا من البشاشة، واللطف.

❖ ❖ ❖

التنزه في البحر والعشاء على الباخرة (سلطانية)

نحو الساعة الرابعة بعد ظهر يوم الأربعاء المشار إليه شخص الإمبراطوران على العربات السلطانية إلى قصر (طولمه بغجه) وهنالك ركبا السفينة (لورلى)، فمخرت بهما في البوسفور حتى البحر الأسود، وكان يتبع السفينة عدد عديد من الزوارق البخارية تحمل رجال الحاشية الكريمة، والجنود مصطفة أمام الثكنات، والمواقع العسكرية على الشاطئ لتأدية السلام، وقد أطلقت الباخرة الراسية أمام (أرناود كوى) المدافع حينئذٍ إجلالاً وتكريماً.

ثم عادا إلى (طرابيه) تجاه السفارة الألمانية حيث كان على الشاطئ تلميذات المدرسة الألمانية في (ببك)، والمدرسة الأرثوذكسية، ولما نزلا إليها، وتناولا أكواب الشاي أخذت طالبات المدرسة

الأرثوذكسية ترتل نشيداً خصوصياً، وكان الرصيف مجللاً بالطنافس الفاخرة والأعلام العثمانية، والألمانية تلوح في مخافقها، وحينئذٍ تمثل مدير الدائرة السابعة علي بك لدى جلالتهما، وأعرب لهما عن سرور العثمانيين بتشريفهما، وعند الساعة التاسعة ليلاً ركب الإمبراطوران الزورق (شريّفيه)، فأقلهما إلى الباخرة (سلطانية) حيث أعد لهما مأدبة شائقة، وقد أنيرت السفينة ليلتئذٍ بالكهربائية، وعلّق على الساري الكبير فيها كثير من المصابيح، فصعدت الإمبراطورة إلى السفينة أولاً، ثم تبعها الإمبراطور، وعزفت الموسيقى بالنشيد الألماني، وأخذت سلامهما العساكر الظافرة، وقد استقبلهما دولتلو طرخان باشا، وعطوفتلو إبراهيم بك المشار إليهما، ومعاونه عزتلو غالب بك، وقد عين الكونت أوللبرغ التشريفاتي الإمبراطوري الأول أماكن الجلوس على المائدة، فجلس الإمبراطور في الصدر وهو مرتدٍ بحلة أميرال بحري، وعلى صدره وساما خاندان آل عثمان والامتياز المرصع، وجلست البارونة مارشال قرينة سفير ألمانيا إلى يمينه، وذو الدولة طرخان باشا إلى يساره، وجلست الإمبراطورة تجاه الإمبراطور، وإلى يمينها سعادتلو توفيق باشا، وإلى يسارها حضرة البارون مارشال، ثم جلس كبار الموظفين العثمانيين، والألمانيين، وبعد ذلك خرج جلالتهما إلى ظهر السفينة لمشاهدة الزينة التي أقيمت لجلالتهما في تلك الليلة، ثم عادا إلى الصرح المعد لنزولهما راكبين الزوارق، ومحفوفين بالتجلة والتعظيم.

❖ ❖ ❖

نزول الإمبراطور إلى «طولمه بغجه»

ما بزغت شمس ذلك اليوم حتى أشرقت طلعة جلالة الإمبراطور والإمبراطورة خارجين من مقرهما العالي إلى «طولمه بغجه» حيث كانت الزوارق السلطانية، وعند الساعة ٩ ركبت جلالة الإمبراطورة زورقاً فيه ١٤ مجذافاً، وركب معها البارونة مارشال، والفريق سعادتلو أحمد علي باشا، وركب جلالة الإمبراطور زورقاً ذا ١٠ مجاذيف، وركب معه المشير دولتلو شاكر باشا، والفريق سعادتلو ناصر باشا، وركب زورقاً ثالثاً حضرة البارون دوبولوف وزير خارجية ألمانيا، والبارون مارشال سفيرها في الأستانة، وسار وراء هذه الزوارق زوارق أخرى تقل الحاشية الكريمة، ورجال السفارة وسواهم، ولما بلغوا محلة »حيدر باشا« صعدوا إلى محطة سكة حديد الأناضول التي كانت مزدانة أحسن زينة، وغاصة بالجماهير الغفيرة من المتفرجين، والعساكر السلطانية مصطفة على جانبي الطريق، وكذلك تلامذة المكاتب حاملين أنواع الزهور والرياحين هاتفين بالدعاء، والموسيقى تصدح باللحن الألماني، وقد كان استقبال جلالتهما في المحطة غاية في الرونق والبهاء، وقد تقدم لجلالة الإمبراطورة طاقة من الأزهار من يد ابنة تدعى صوفيا زوغومالاس، فقبلتها الإمبراطورة بشكر، والابنة قبَّلت يدها بعد أن كالمتها بلطف، أما الإمبراطور، فقد أمر ناظر بلاطه بالاستعلام عن أهلها، وأن يُبلغوا أن الإمبراطورة لا تنسى لطف هذه الابنة، ثم ركب جلالتهما قطاراً خاصاً مزيناً بأفخر الرياض، ومفروشاً بالطنافس الثمينة، ثم ركب كبراء البطانة والمصاحبون قطاراً آخر، وساروا إلى أركله.

الإمبراطور في معمل أركله[1]

لما وصل القطار بجلالتهما إلى «أركله» أخذت سلامهما فرق الجنود المصطفة هناك، واستقبلهما باسم عظمة السلطان الأعظم حضرة سعادتلو أوهانس أفندي ناظر الخزينة الخاصة، وحضرة سعادتلو عاطف بك مدير المعمل، وأخذ سلامهما فرقة من البحارة بإمرة رفعتلو إسماعيل بك، وكانت الموسيقى تعزف بالألحان الألمانية والطريق مزينة زينة بهية نصب فوقها أقواس النصر العديدة المصنوعة من ورق الغار، والأزهار تخفق فوقها الرايات العثمانية والألمانية، أما زينة حديقة المعمل، فحدث عنها ولا حرج، فإنها كانت غاية في الإتقان.

وقد دخل جلالتهما المعمل المذكور، وأخذا يتفقدان معاهده الواحد بعد الآخر مستفهمين عن كل عمل، وكانت الإمبراطورة حينئذ تكلِّم العاملات بلطف، وقبّلت إحداهن، وقد طالت مدة مكثهما في المعمل إلى نحو ساعة، وقبل براحهما تقدم المدير المشار إليه، وقدم لجلالتهما باسم عظمة السلطان الأعظم بساطاً كبيراً طوله ٤٠ متراً، وعرضه ١٨، صنع بأمر عظمته لإهدائه لجلالتهما تذكاراً لزيارتهما، فسُرَّ الإمبراطور سروراً عظيماً، وطلب من المدير أن يرفع إليه قائمة بأسماء اللواتي اشتغلن هذا البساط، فرفع لجلالته حينئذٍ قائمة بأسماء المشتغلات، وعددهنّ اثنتا عشرة ابنة،

---

(١) أركله مكان فسيح مشرف على البحر تحيط به حدائق غناء تروق للنظر، وفيه المعمل العثماني الشهير معمل الأنسجة الحريرية والبسط الفاخرة الذي يشتغل فيه مئات من العاملات.

فأنعم على كل منهن بمبلغ قدره خمس مئة فرنك ليوضع في البنك كمهر لها، وقدمت لجلالة الإمبراطورة أيضاً ثلاثة أبسطة صغيرة من الحرير صنع المعمل المذكور فسرَّت بهما سروراً عظيماً، وبعد ذلك دعي جلالتهما للغداء في قصر أعدَّ لهما على شاطئ البحر، وفرش كله بمصنوعات المعمل الحريرية، وقبل أن يجلس الإمبراطور للطعام بعث برسالة برقية إلى عظمة السلطان الأعظم يوضِّح فيها مسرته من زيارة المعمل المذكور، ويبدي شكره من حسن الاستقبال، فورد الجواب يعرب عن رغبة عظمته بدوام المسرة، وبعد أن جلس جلالة الإمبراطور والإمبراطورة على المائدة الإمبراطورية، جلس على يمين جلالتهما وعن اليسار كبار الحاشية الإمبراطورية، وحضرة دولتلو شاكر باشا، وسواه من كبار المأمورين العثمانيين، والدكتور سيمن مدير السكة الحديدية، وأعضاء مجلس إدارتها البالغ عددهم جميعاً أربعين واحداً، وجلس على المائدة الثانية كثيرون من الكبراء، وموظفي السكة الحديدية، وعند الساعة ٣ بعد الظهر برح جلالتهما المعمل على السفينة «لورلى»، وكان أهالي تلك القرية، والعاملات على شاطئ البحر يحيُّون جلالتهما داعين لعظمة السلطان الأعظم، ثم سارت السفينة نحو جزائر الأمراء، ولما دنت من الجزيرة (ملكي) كان تلامذة المدرسة البحرية على الشاطئ، فحيُّوهما وقد توالى حينئذ إطلاق الأسهم النارية، ثم رست الباخرة أمام (طولمه بغجه)، فنزل جلالة الإمبراطور، والإمبراطورة، والحاشية الكريمة مستقبلين بالإكرام والحفاوة، وساروا إلى قصر يلدز لمناولة العشاء.

❖ ❖ ❖

يوم الجمعة في ٢١ تشرين الأول
زيارة جامع إجيا صوفيا والمتحف الهمايوني

في صباح اليوم المذكور وصل جلالتهما راكبين عربة يقودها أربعة من جياد الخيل إلى سراي «طولمه بغجه»، ومنها ركبا الزورق الكبير إلى الجهة الثانية من البوسفور حيث استقبلهم من لدن الذات الشاهانية العلية حضرة عطوفتلو حسن بك، وسعادة محافظ سراي (طوب قبو)، ومن ثم ركبا مركبة أعدت لهما تتلوها مركبات عديدة تقلُّ الحاشية الكريمة، وانطلقا إلى السراي العامرة، وبعد أن تنزها في القصر الجديد، وخمائله توجها إلى جامع اجيا صوفيا، فشرح لهما ترجمان السفارة الألمانية بعض تفصيلات تتعلق بالجامع المشار إليه، ثم سارا إلى المتحف الهمايوني، وبعد أن شاهدا ما فيه من التحف النادرة المثال عادا إلى قصر «طولمه بغجه»، ومن ثم انطلقا إلى يلدز.

❖ ❖ ❖

السلاملك السلطاني العالي

قبل ظهر يوم الجمعة الآنف الذكر خرج صاحب العظمة مولانا السلطان الأعظم راكباً عربة فاخرة، وأمامه حضرة ذي الدولة عثمان باشا الغازي للصلاة في جامع الحميدية بموكب عظيم، فوقفت الجنود على جوانب الطريق من القصر حتى الجامع المشار إليه، وكان الناس من وراء الجنود يعدُّون بالألوف، والرايات تصفّق

طرباً، والموسيقات تعزف كل ما مرَّت عربة الحضرة السلطانية أمام فرقة من تلك الجنود.

وأمَّا جلالة الإمبراطورين العظيمين، فقد كانا جالسين، ومن حولهما الحاشية الإمبراطورية، ورجال السفارة الألمانية، وسواهم من كبار الألمان في قاعة خصوصية تشرف على تلك المناظر البهجة، فأشار عظمته حينئذٍ إلى جلالتهما إشارة التسليم، وبعد الصلاة خرج حضرة مولانا السلطان الأعظم عائداً إلى سراي يلدز على عربة يقودها بذاته الكريمة، وإلى جانبه حضرة نجابتلو دولتلو برهان الدين أفندي أحد الأنجال الكرام، فحيَّا جلالتهما تكراراً، وسار إلى السراي الهمايونية محفوفاً بملائكة النصر والإقبال.

❖ ❖ ❖

الاستعراض العسكري

بعد إجراء التشريفات الهمايونية على ما مرَّ سار جلالتهما إلى قصر «مالطه» في السراي الهمايونية لشهود استعراض العساكر الشاهانية حيث كان جميع سفراء الدول الفخيمة، وسواهم من الحاشية الإمبراطورية، ولما دخلا القصر المشار إليه رفع العلم الألماني، وبعد ذلك أشرق بدر طلعة حضرة سيدنا، ومولانا السلطان الأعظم، فقابلاه بغاية الحفاوة والإكرام، ثم رُفع العلم العثماني، وعند ذلك وقف عظمته، وإلى يمينه جلالة الإمبراطورة، ونساء الشرف، وإلى يساره جلالة الإمبراطور، أما الباقون، فقد وقفوا في غرفة أخرى، ولما أطلّ حضرة مولانا السلطان الأعظم من النافذة

أخذ سلامه العالي حضرة دولتلو شوكت باشا قومندان الحرس السلطاني، واحد الياوران الكرام، ورفعت الجنود[1] المستعرضة البنادق، وصدحت الموسيقى بالنغم الحميدي، وصاح الجند ثلاثاً «بادشاهم جوق يشا»، ثم هتف الحاضرون من الأهالي هتاف الدعاء، ثم صدحت الموسيقى باللحن الألماني، وعند ذلك أظهر حضرة الإمبراطور ارتياحه إلى توزيع المداليات الألمانية على الضباط العثمانيين كلها، وأمر بتسليمها إلى حضرة دولتلو شاكر باشا مشير الأركان الحربية، فوزعت عليهم، وقد سرّ جلالتهما من هذا المشهد العظيم، ثم ذهبا إلى قصر مراسيم حيث تناولا طعام الغداء على مائدة عليها بعض الصحف الشرقية، وبعد ذلك سارت جلالتها إلى السفارة الألمانية، ثم ذهبت إلى المستشفى الألماني، وبعد أن طافت في غرفه كتبت اسمها الكريم في سجله.

❖ ❖ ❖

---

(١) الجنود المستعرضة بقيادة دولة المشير شوكت باشا المشار إليه هي: الأورطة الأولى من فرقة بلافنا، والأورطتان الأولى والثانية من الزواف لابسي العمائم، والأورط الأولى، والثانية، والثالثة من الفرقة الخامسة، والأورطة الأولى من الفرقة السابعة، والخامسة من الفرقة الثامنة، والأورطة الأولى من جند الحصون، والقلاع جميع ذلك من القسم الأول للحرس السلطاني، والأورطة الثانية من فرقة الشاسور، والأورطتان الأولى والثانية من الزواف لابسي الطرابيش، والأورط الأولى، والثانية، والرابعة من الفرقة السادسة، والأورطة الأولى من جيش المضارب، والثانية من فرقة القلاع، ثم الخيالة بقيادة سعادتلو حقي باشا قومندان فرقة ارطغرل، ثم الرماحة بقيادة سعادتلو اللواء نوري باشا، ثم الطوبجية بقيادة اللواء سعادتلو علي رضا باشا من الياوران الكرام من القسم الثاني للحرس السلطاني.

السبت في ٢٢ منه
عيد الإمبراطورة والاحتفال به

لما كان يوم السبت المشار إليه موافقاً لميلاد جلالة الإمبراطورة صدرت الإرادة السنية قاضية بإطلاق المدافع صباحاً من القلاع، والحصون كافةً، أما جلالتهما، فقد ذهبا حينئذٍ محفوفين بالتجلة، والتكريم إلى دار السفارة الألمانية حيث قدَّمت لجلالتهما أناشيد مطربة، وقد أهدت الحضرة السنية السلطانية الإمبراطورة يومئذٍ طاقة من الزهر غاية في الإتقان واللطافة، وقد قدم كل من فخامة الصدر الأعظم، وحضرة النظار، وسفراء الدول باقات من الزهر في دار السفارة إكراماً لميلاد جلالتها، وقد دخلت على حضرة الإمبراطورة حضرة صاحبة العصمة خانم أفندي إحدى كريمات الذات العلية الشاهانية البالغة من العمر ست سنين، وبيدها باقة من الزهور، وقدمتها لها بمناسبة عيد مولد جلالتها، وقد أبدت لها مراسيم التهاني، والترحيب بها، وبجلالة الإمبراطور بألفاظ عذبة ترجمها حضرة دولتلو منير باشا سر[1] تشريفاتي الحضرة السنية السلطانية فسرَّت من ذلك جداً، وقبلتها قائلة لدولتلو منير باشا المشار إليه (إذا أراد الله خيراً بأمة جعل العلم في ملوكها)، وقد أنشدت تلك السلطانة الصغيرة حينئذٍ قطعة موسيقية صغيرة أجادت بإتقان لحنها، وإنشادها.

❖ ❖ ❖

(١) سر = راس موظفي التشريفات.

مأدبة الوداع

عند ظهر يوم السبت المشار إليه أُدبت لجلالتهما مأدبة وداعية فاخرة كانت غاية في التأنق، والإتقان، فتصدرت فيها الحضرة العلية السلطانية، وإلى جانبها جلالة الإمبراطورة، والإمبراطور يليهما الكبراء، والوزراء من عثمانيين، وألمان، فتناولوا جميعاً طعام الغداء، وبأثناء ذلك تبادل جلالتهما، والحضرة العلية السلطانية عبارات الولاء والصفاء.

❖ ❖ ❖

الوداع الإمبراطوري

عند الساعة الثانية بعد ظهر ذلك اليوم أخذت الجموع تحتشد، والجنود تنتظم للاحتفال بوداع صاحبي الجلالة، ولما كانت الساعة ٣ أقبل عظمة السلطان الأعظم لوداع جلالة زائريه الكريمين، فاستقبل بكل حفاوة، وإكرام في القاعة الكبرى، ثم خرج عظمته، وذهبت جلالة الإمبراطورة لوداع الحرم السلطاني على حدة متزودة بدعاء حضرة صاحبة العصمة، والدولة والدة حضرة مولانا السلطان الأعظم، ولما كانت الساعة الخامسة أقبلت الحضرة السنية السلطانية، وإلى جانبيها جلالة الإمبراطورين، ووراءهم سائر المودعين إلى الرصيف حيث كان الزورق السلطاني ينتظر جلالتهما، وكل من أصحاب الدولة والنجابة الأمراء عبد القادر أفندي، وأحمد أفندي، وبرهان الدين أفندي أنجال حضرة سيدنا، ومولانا السلطان الأعظم إجابة لدعوة جلالة الإمبراطور، فحياهم جلالته مصافحة،

وحدثهم بكل لطف وولاء، ثم تقدم جلالتهما لعظمة السلطان الأعظم، وصافحاه مراراً متوالية، وبعد أن أعربا لعظمته شكرهما عما لقياه من حسن الاستقبال، وأبانا لعظمته ما خالج فؤاديهما من السرور بزيارته للمرة الثانية، وأنهما يأسفان لفراقه نزلت جلالتها إلى زورق معدٍّ لهما بسبعة أزواج من المجاذيف، وتبعها جلالة الإمبراطور، فأطلقت المدافع، وعزفت الموسيقات، وأخذت العساكر سلامهما داعيةً لهما بسفر سعيد، وهكذا سار بهما الزورق بين دوي المدافع، وهتاف الجماهير، إلى أن وصلا إلى اليخت (هوهنزولرن) ينظّمان من الثناء عقوداً على ما شاهدا من الحفاوة والتكريم.

❖ ❖ ❖

ذكرى الزيارة

صدرت الإرادة السنية بوضع نوط ذهبي بمقدار اثنتين من ذوات الليرات الخمس تذكاراً لزيارة جلالة إمبراطوري ألمانيا، وأن ينقش عليه الشعار العثماني محاطاً بهذه الكلمات على شكل دائرة مكتوبة بالخط الثلث، وهي «ملاقاة السلطان عبد الحميد خان الثاني بإمبراطور ألمانيا ويلهلم الثاني في القسطنطينية وذلك بتاريخ أول جمادى الآخر سنة ١٣١٦، وعلى الوجه الآخر صورة الشعار الألماني (النسر) محاطة بعبارة ألمانية بمآل ما تقدم، وصدرت الإرادة السنية أيضاً بعمل مداليات معدنية من مداليات معرض إعانة أيتام وشهداء الحرب، وجرحاها ابتغاء إهدائها أيضاً لجلالة الإمبراطور، وحاشيته، وهذه المداليات تكون بحجم ربع ريال مجيدي منقوش على

إحدى وجهيها صورة المعرض يعلوها الطغراء الغراء، وعلى الوجه الآخر غصنان من الغاز مشتبكين على صورة دائرة فوقهما هذه العبارة (علامة الشفقة والإنسانية).

وقد صدرت الإرادة السنية أيضاً بتشييد حوض للماء في الأستانة العلية بناءً على رغبة الإمبراطور بذلك تذكاراً لزيارته، وذلك حسب الرسم الذي وضعه جلالته.

❖ ❖ ❖

الإمبراطور في حيفا

عند الساعة الثالثة بعد ظهر يوم الثلاثاء الواقع في ٢٥ تشرين الأول سنة ١٨٩٨ أقبلت الباخرة هوهنزولرن إلى ثغر حيفا[١]

---

(١) هذه المدينة قائمة فوق البحر في سفح جبل الكرمل على مسافة ثلاث ساعات من مدينة عكا. موقعها يشبه موقع بيروت، وفيها من المباني من ذات الطراز الجديد ما تعدُّ به في مصاف المدن التي هي من الدرجة الثانية في سوريا، وقد كانت تعد منذ ثلاثين سنة من القرى العادية. ومن بضعة شهور أنشأت الحكومة السنية مرسىً جديداً فيها غير المرسى القديم ليخرج منه جلالة الإمبراطور، والإمبراطورة بحاشيته الكريمة، وقد بنته من الحجر الرملي النقي بمكان قريب من رأس جبل الكرمل إلى الناحية الغربية الجنوبية قبالة الجالية الألمانية، وكان إنشاؤه على يد المهندس شوماخر طبقاً للرسم الذي رسمه الأستاذ لند أحد أساتذة المدرسة الملكية في دار السعادة العلية، وقد بلغت نفقات هذا المرسى الجديد ثلاثة آلاف ليرة. أما طوله فخمسة وسبعون متراً، وعرضه ستة أمتار وارتفاعه عن سطح المياه متر ونصف متر، وهو ينار ليلاً بعشرة مصابيح مرتكزة حوله على أعمدة =

تخفرها الدارعتان «هرتا» و«هيلا»، فأطلقت قلعة عكا ٢١ مدفعاً، وخفَّ إلى اليخت حضرة الفريق سعادتلو عبد الله باشا يحمل السلام الشاهاني لجلالتهما، والموسيو شرودر قنصل دولة ألمانيا في بيروت، والموسيو كلر قنصل الدولة المشار إليها في حيفا ليقتبلا الأوامر الإمبراطورية، وبأثناء ذلك بعث جلالته برسالة برقية إلى الحضرة الإمبراطورية السلطانية يتضمن النبأ بوصوله سالماً، فورد على جلالته الجواب متضمناً التهنئة بسلامة الوصول، وبعد ذلك عاد الذوات المشار إليهم معلنين رغبة جلالتهما بالنزول إلى البر، فصفَّت العساكر على جوانب الطرق، ووقف على الرصيف كل من حضرة صاحب الدولة ناظم باشا والي ولاية سوريا، وصاحب العطوفة رشيد بك والي بيروت، وأصحاب السعادة عبد الله باشا المشار إليه، وحسين بك متصرف عكا سابقاً، وأحمد شكري أفندي قائمقام حيفا، ومحمود جلال الدين أفندي مدير معارف ولاية بيروت، وميشال أفندي أده مدير الأمور الأجنبية في بيروت، وعزتلو

= حديدية. ومعظم تجارة هذه المدينة بالحبوب، ولها في هذه التجارة فروع كثيرة في المدن، والقرى، أما عدد أهاليها فيَبلغ نحو عشرة آلاف نفس، وقد سرى في أذهانهم نور المعارف والتهذيب منبعثاً إليها من المدارس الابتدائية الوطنية والأجنبية، وفيها قناصل لجميع الدول إلا اليونان، ومن نحو خمس وعشرين سنة أتاها نحو مئة عائلة من مهاجري الألمان فتوطنوا فيها، وشادوا أبنيتهم على طراز أبنية أوروبا، وهم يشتغلون بالزراعة والصناعة وبعضهم بالتجارة، ويبلغ عددهم الآن نحو ثمان مئة نفس تقريباً، وفيها كثير من الفنادق والمعابد لجميع الطوائف التي اتخذتها موطناً وهي: الإسلام، والروم الأرثوذكس، والموارنة، والروم الكاثوليك، واللاتين، والبروتستانت، واليهود، وهي من حيث أحكامها تابعة لولاية بيروت.

بشاره أفندي سر مهندس[1] الولاية، والدكتور شرودر المشار إليه، والموسيو كلير قنصل ألمانيا المشار إليه، وجميعهم بالألبسة الرسمية، ولما كانت الساعة الخامسة أقبل جلالتهما مع بعض نساء الشرف على زورق بخاري بديع الصنعة قام في وسطه غرفة بلورية، ثم رجال الحاشية على زوارق أخرى، ولما نزلا إلى البر صدحت الموسيقى بالألحان الألمانية والعثمانية، وأخذت العساكر الظافرة سلام جلالتهما، وقدم له عبد الله باشا باقي الذوات المشار إليهم، فصافحهم بهز الأيدي، ولما قُدّم له قائمقام حيفا قال له: »إن بلدكم صغيرة إلا أنها جميلة« فأجابه: »إنها كانت صغيرة أما الآن فقد عظمت بتشريف جلالتكم«، ثم صعد بعد ذلك مع الإمبراطورة إلى جبل الكرمل حيث مقام النبي إيليا، وبعد أن طاف فيه، وسرح طائر الطرف في تلك الهضاب والبطاح، عاد محفوفاً بالعظمة إلى الرصيف حيث كانت الموسيقى تصدح بالألحان الشجية، والمأمورون المشار إليهم ما زالوا بانتظار جلالته، فمكث يتمشى على الرصيف بضع دقائق ظهر في خلالها إنه منشرح الصدر، ثم ركب الزورق المشار إليه هو والإمبراطورة والحاشية، وعادوا إلى اليخت يصحبهم كل من حضرة ناظم باشا، ورشيد بك، وعبد الله باشا، والمسيو شرودر الذين دعاهم جلالته لمناولة طعام العشاء على مائدته الكريمة، ولما جلسوا إلى المائدة خاطب جلالته ناظم باشا قائلاً: إنني مسرور جداً بهذه السياحة، وبما شاهدته من حفاوة عظمة السلطان عبد الحميد الذي أعده بمثابة والدي، وكان صدر جلالته حينئذٍ يتلألأ بوسام خان دان آل عثمان العظام، ووسام الامتياز

---

(١) سر مهندس = كبير مهندسي أو رئيس مهندسي.

المرصع، وقد ظهرت ليلتئذٍ «حيفا» و«عكا»، والقرى المجاورة الدوارع والراسية في الثغر بحلة أنيقة من الزينة، وقد كان عدد القادمين إلى حيفا يومئذٍ لشهود الاحتفال نحو ١٠ آلاف نفس، ومعدّل الكلمات الصادرة منْ مركز حيفا التلغرافي[1]، والواردة عليه في كل من يومي الاثنين والثلاثاء الرابع والعشرين والخامس والعشرين من الشهر المذكور نحو أربعين ألف كلمة، وعند الساعة السابعة من صباح اليوم التالي نزل جلالتهما والحاشية الكريمة من اليخت، فاستقبلهم كل من حضرة ناظم باشا، ورشيد بك، وصدحت الموسيقى، وأخذت سلامها العساكر الشاهانية، وأطلقت المدافع من قلعة عكا، ومن حيفا، ومن البارجة العثمانية، وبعد ذلك أتى جلالتهما حديقة

---

(١) إن الحكومة السنية قد عينت ستة من مأموري التلغراف ليكونوا بمعية جلالة الإمبراطور وهم كل من أصحاب العزة مدالي أفندي مهندس التلغراف العام (لأجل التبييض)، وحيدر بك (لأجل التصحيح)، وعزت بك، وبكر سامي أفندي، وحشمت أفندي، وقساطو أفندي (لأجل المخابرة)، وعينت في حيفا علاوة على مدير تلغرافها يومئذٍ وهو رفعتلو الأمير قيصر شهاب كلاً من أصحاب الرفعة خليل أفندي كاًتب باش مديرية تلغراف بيروت، وقيصر أفندي منير أمين الصندوق، وحيدر أفندي وشوعه أفندي، ورشيد أفندي حداد، وموليري أفندي، وإميل أفندي مأمور عكا. وعينت في يافا علاوة على المدير رفعتلو يوسف أفندي صوصه كلاً من رفعتلو يوركي أفندي، والأمير عارف شهاب، ولطفي أفندي، وحكمي أفندي – وعينت في القدس علاوة على المدير رفعتلو جمال أفندي كلاً من رفعتلو شفيق أفندي، ومويز أفندي، وحسن أفندي. وعينت في طبريا علاوة على المدير رفعتلو باريخ أفندي رفعتلو نجيب أفندي فرحات ناصيف. وعينت في الناصرة علاوة على المدير رفعتلو يروانت أفندي رفعتلو خريستو أفندي أما في مركز تلغراف بيت لحم، فكان رفعتلو نجيب أفندي وذلك عدا المأمورين الموظفين رسمياً في المراكز المذكورة وقد أقامت مفتشاً عاماً عزتلو حمدي بك المعروف بالحكمة وسمو المدارك.

قونصلاتو ألمانيا حيث كان أعدَّ لهما كرسيان من صنف الفوتول على بساط أنيق، وكانت العساكر خارج الحديقة، فلم يكن داخلها غير الجالية الألمانية، والحاشية الإمبراطورية[1]، وتراجم القونصلاتو، واثنين من أصحاب الجرائد الوطنية، وبعض مراسلي الجرائد الأجنبية[2]، وتحرير واقع الحال هو: أنه لما وصل جلالة الإمبراطور

---

(١)

وزير خارجية دولة ألمانيا	الموسيو دوبولوف
التشريفاتي الأول	القونت أوللبرغ
رئيس الدائرة الإمبراطورية	القونت ودل
الأستاذ	الموسيو لوتيهولد
الطبيب الخاص	البارون لينكر
الطبيب الثاني	الدكتور ايلبرغ
الرئيس الروحي	دريااندر
المستشار الأول	الموسيو لوقانوس
المستشار الثاني	الغونتر أميرال البارون سندن بيبران
سفير ألمانيا في الأستانة	البارون مارشال
باش ترجمان السفارة	الكونت (القونت) مولنين
نساء الشرف	القونتس (الكونتس) كالمر والآنسة كرسدورف
مأمور تشريفات الإمبراطورية	القونتس بركوروف والبارون مرباح والبارون كنزيك

(٢) كان في الموكب الإمبراطوري من أصحاب الجرائد ومكاتبيها ثمانية وأربعون وإليك بيانها من أصحاب الجرائد التركية ٣، من أصحاب الجرائد العربية ١٠، ومن أصحاب الجرائد الإنكليزية ١٣، ومن أصحاب الجرائد اليونانية ١، ومن أصحاب الجرائد الإفرنسية (بينهم ابنة) ٥، ومن أصحاب الجرائد الألمانية ١٢، ومن أصحاب الجرائد الإيطالية ١، ومن أصحاب الجرائد النمساوية ١، ومن أصحاب الجرائد الأميركية ١، وابنة صاحبة جريدة هولاندية.

والإمبراطورة، ومن أشرنا إليهم من كبار المأمورين العثمانيين، والوزراء الألمانيين، تقدم الطالبون، والطالبات من أبناء مدرسة الألمان ينثرون الأزهار عند أقدامهما، ثم تقدم ابنتان، ورفعتا لهما طاقتين من الزهر، ثم تقدم قسيسان من الألمان، وهما بورمستر، وباتر بيفر، وناظر المدرسة الموسيو «لنكى»، وخطبوا في حضرتهما بالألمانية خطاباً أعربوا فيه عن تعلقهم بالإمبراطورية الألمانية، ولما فرغوا من الكلام دنوا من جلالته، فصافحهم يداً بيد، ثم تقدمت السيدات الأوانس «أناليخ»، و«ادوار كلر»، و«انريتا كلر» كل واحدة منهن بطاقة للإمبراطورة، وقبّلن يدها وهذه الطاقات منضدة على الطراز الشرقي ضمن علبة من خشب الزيتون، ثم تقدم الخواجا هومس لنجر، وأرنست اهمان، وقدما مائدة من خشب الزيتون كبيرة، وأخرى صغيرة مستلقى[1] للأقدام، ثم تقدمت البنات الصغيرات أليس، وهيلانة، وشارلوت بسرير صغير من زيتون فيه شخص صغير تقدمة لجلالته، فتكلم جلالته بما شفّ عن ارتياحه لذلك كله باللغة الألمانية واعداً الألمان أنه سيعهد إلى ملك (وورتنبرغ)[2] أن يعاونهم ويقضي لهم ما يلتمسون، ثم رفع إليه جناب نقولا أفندي عبد المسيح صاحب جريدة السرور التي تطبع في مصر أربعة أبيات[3] من الشعر مكتوبة بحروف مطرزة بسلك من ذهب على رقعة يحيط بها إطار متقن الصنع، فأمر جلالته بأخذها مظهراً ارتياحه، ثم ذهبا إلى دير الراهبات الألمانيات، وإلى الكنيسة

---

(١) مستلقى = مسند.

(٢) إحدى إمارات ألمانيا التي مر ذكرها آنفاً.

(٣) مر بيان الأبيات المذكورة في الصفحة (٢٠).

الألمانية، ثم سارا في موكب عظيم قاصدين «قيصرية»[1] على العربة بعد أن تقدمهم ذاهباً إليها حضرة صاحب الأبهة، والدولة جواد[2] باشا الصدر الأعظم الأسبق لإرصاد المعدات اللازمة، وقد صحبهما حضرة دولتلو ناظم باشا، وسعادتلو عبد الله باشا، أما حضرة عطوفتلو رشيد بك والي بيروت فشيَّعهما إلى أطراف الولاية، ثم عاد إلى بيروت لارصاد المعدات اللازمة، فعرجا بأثناء ذهابهما على قرية عتليت[3]، وبعد أن شاهدا ما بها من الآثار القديمة استأنفا المسير، فبلغا قرية التنتورة[4] الساعة الحادية عشرة قبل الظهر، فاستراحا قليلاً بالمضارب المعدة لعمال، وبعد مناولة الغداء شخصا

---

(١) هي مركز مديرية (قيصَرية) وقد كانت في السابق مدينة عظيمة بناها هيرودس على شاطئ البحر وجعلها عاصمة لفلسطين فنمت وشيدت فيها الصروح الفاخرة وأقيم فيها هيكل لأغسطوس قيصر وكانت ميناها من أحسن المرافئ وقد ورد ذكرها في الإنجيل المقدس وفيها ولد المؤرخ الكنائسي إيسيوس والمؤرخ بروكوبيوس ولم تلبث أن انحطت عظمتها بعد ذلك وآل أمرها إلى الخراب والدمار، وقد كانت من نحو عشرين سنة تحتوي على مائة بيت، وجعلت موطناً لمهاجري الجركس، أما اليوم، فقد أصبحت تعدُّ في مصاف القرى الكبيرة، وكثيراً ما يؤتى بحجارتها إلى يافا لأجل البناء. وبينها وبين التنتورة طريق عربات طوالها ١٢ كليو متراً.

(٢) بناء على الإرادة السنية عهد إلى هذا المشير الخطير بارصاد المعدات اللازمة في كل مكان قبل وصول جلالة الإمبراطور إليه.

(٣) هي قرية غنية بآثارها القديمة، وموقعها إلى الجنوب الغربي من مدينة حيفا.

(٤) هي قرية على شاطئ البحر شيِّدت أبنيتها على الطراز الجديد، وقد أقام فيها البارون رتشليد معامل زجاجية إلا أنها لم تأت بالغرض المقصود لعدم موافقة تربتها، وبينها وبين حيفا طريق طولها ٣٨ كيلو متراً.
التنتورة: تعرف حالياً باسم الطنطورة.

إلى قيصرية حيث أعرب جلالته للجنود العثمانية الظافرة أنه يحب العثمانيين، ويحبونه وبعد مشاهدة آثارها شخصا إلى البرج[1]، وباتا تلك الليلة في المضارب المعدة لهما هنالك، وفي صباح اليوم الثاني ركبا في موكب عظيم قاصدين يافا[2].

ولما بلغا أطراف قضاء بني صعب رأيا عمودين قائمين على جانبي الطريق كتب على كل منهما بالعربية والألمانية «بني صعب» وفوق العمودين تخفق الرايات العثمانية، والألمانية، وكان قائمقام القضاء عزتلو جميل بك العابد في عدد من الفرسان يترقب قدوم جلالتهما، وعند الساعة ١٢ من ذلك النهار بلغا قرية «النبي[3] أمين» حيث كانت أعدت لهما المضارب، وبعد أن تناولا طعام الغداء،

---

(١) قرية صغيرة من أملاك حضرة صاحب الدولة والأبهة كامل باشا الصدر الأعظم الأسبق، ووالي ولاية أزمير، وأهلها قليلو العدد يشتغلون بالحراثة، والزراعة، وبينها وبين قيصرية طريق عربات طولها ٥ كيلو مترات.

(٢) مدينة كائنة على شاطئ بحر الروم، بينها وبين أورشليم نحو أربعين ميلاً، وهي ذات مبان متينة مؤلفة من الحجارة الصلبة، وقد أحاطتها البساتين من كل جانب، فكثرت فيها أنواع الأشجار، والأثمار لا سيما البردقال أما مناهلها فأكثرها من الآبار، وهذه المدينة قديمة العهد حتى قيل إنها وجدت قبل الطوفان، أما ميناها، فلا تدنو منها البواخر لشدة أخطارها، ولو كان البحر هادئاً ساكناً، بل ترسو على مسافة بعيدة عنها، ولهذه المدينة شأن كبير في التاريخ لما كثر فيها من الحروب ولتجارتها فروع كثيرة، وبينها وبين النبي أمين طريق عربات طولها ٢٢ كيلو متراً، وبينها وبين القدس سكة حديدية طولها ٧٦ كيلو متراً.

(٣) هي قرية صغيرة في منتهى حدود سنجق نابلس تحتوي على خمسين بيتاً من البيوت الحقيرة، وسكانها يشتغلون بالحراثة، والزراعة، وبينها وبين البرج طريق عربات طولها ٤٦ كيلو متراً.

واستراحا ركبا قاصدين يافا، ولما انتهيا إلى آخر قضاء بني صعب وجدا على الحدود عمودين كالأولين وعليهما عدد الأمتار التي قطعاها ضمن القضا وقدرها ٣٨ كيلو متراً(1)، وقد بقيا مواصلين السير حتى بلغا حدود يافا، فرأيا في المكان المسمى »بيار عدس« مضربين قام فيهما بانتظار جلالتهما حضرة سعادتلو توفيق بك متصرف القدس، وحضرة سعادتلو حسن أفندي رئيس هيئة الضابطة في الأستانة العلية، وعزتلو نشأت بك نجل حضرة ناظر الضابطة الجليلة، وأحد أعضاء شورى الدولة الذين أنفذا للقيام بإجراء التدابير الاحتياطية في القدس، وعزتلو محمود بك قومندان الموقع في القدس، وعزتلو زهدي بك وكيل قائمقامية يافا، ورفعتلو محمد أفندي مراد مأمور طابو يافا، فمر بهم جلالته، وبقي مواصلاً السير حتى بلغ أوائل المدينة، فشاهد ألوفاً من اليافيين

---

(١) إن الطريق المذكورة هي إحدى الطرق التي أُنشئت حديثاً وهي:

كيلو متر	
٧٠	طريق أنشئت من حيفا إلى الناصرة
١٧	طريق أنشئت من حيفا إلى عتليت
١٢	طريق أنشئت من عتليت إلى التنتورة
١١	طريق أنشئت من التنتورة إلى قيصرية
٥	طريق أنشئت من قيصرية إلى البرج
٨	طريق أنشئت من البرج إلى حدود سنجق نابلس
١٨	طريق أنشئت من سنجق عكا إلى قلنسوة
٢٠	طريق أنشئت من قلنسوة إلى حدود يافا
٢٢	طريق أنشئت من حدود نابلس إلى يافا
١٨٣	

=

بمكان تخفق فوقه الرايات العثمانية، والألمانية، ولما بلغا جسر مسراره رأيا فوقه قبة مزدانة بالأعلام والأزهار، وكان على جانبيه تلاميذ المدارس الألمانية، وتلميذاتها، وأكثرهم باللباس الأبيض، وعلى صدر كل واحد شارة تمثل الراية الألمانية، وهم يهتفون بالدعاء، ولما بلغ سارونة[1] أوقف العربة تحت قبة مزدانة بالأعلام، والأزهار، وفي صدرها الشعار الألماني أعدها له الجالية الألمانية على صورة تدهش الأبصار يتقدمها ويتلوها على مسافة بعيدة من الطريق ألوف من الرايات، وكان الألمانيون جميعاً، وعددهم نحو أربعة آلاف محتشدين إلى جانبي الطريق لاستقبال جلالتهما، وفي مقدمتهم قنصل الدولة الألمانية المسيو شميث، وموظفو القونصلاتو، وهم جورج أفندي مراد الكونشليار، والياس أفندي الترك الترجمان الأول، وأنطون أفندي الخوري سالم الترجمان الثاني، فتقدم إذ ذاك جناب القنصل، وحضرة السيدة قرينته، وبيد كل منهما كأس من الخمر الجيدة، وطاقة من الزهر فقدماها لجلالتهما، وتكلم القنصل

= وقد أنشئ في هذه الطريق نحو ٦٠ من الجسور، والمعابر، وأنشئ بين التنتورة، وقيصرية جسر مؤلف من أربع قناطر، يبلغ طوله ٨٠ متراً، وقد تم إنشاؤه في واحد وعشرين يوماً بهمة عزتلو بشارة أفندي مهندس الولاية ببيروت الجليلة، ومعاونيه وهم حسين أفندي مهندس لواء عكا، وضاهر أفندي مهندس اللاذقية، وسامي أفندي مهندس طرابلس، ومحمد أفندي علي معاون مهندس نابلس، والقولاغاسي حسين بك، والملازمين رمزي أفندي، وتوفيق أفندي، وتيار أفندي، وحقي أفندي. أما مجمل النفقات على هذه الطرق، والجسور فقد بلغ سبعة آلاف ليرة، وذلك ما عدا ما قام به المكلفون من الأهالي من أمر الإصلاح توفيقاً للنظام.

(١) وهي المستعمرة الألمانية الأولى الملحقة بيافا بمكان يبعد عنها نحو نصف ساعة.

حينئذٍ بما يدل على سرور الألمانيين بذلك اليوم السعيد قائلاً: «أقدم لجلالتكم كأساً من خمرٍ عصرتها يد ألمانية» وخاطبت قرينته جلالة الإمبراطورة قائلة: «أقدمُ لجلالتك أزهاراً أقتطفتها يد ألمانية»، ثم تلاهما الخواجا هنري ويبر كبير الجالية الألمانية مرحباً بجلالتهما بالنيابة عن الألمان عموماً، فأظهر جلالته ارتياحه إلى ذلك، وقال إنه مسرور بأن الجالية الألمانية تتمتع برغد العيش في ظل الدولة العلية العثمانية مبيناً ما بين عظمة السلطان الأعظم، وبينه من الولاء والصفاء، وبعد أن شرب جلالتهما كأسي الخمر هتف الجموع المحتشدة من ألمان، وسواهم، وعددهم لا يقل عن العشرين ألف نسمة بالدعاء لعظمة مولانا الأعظم، ولصاحبي الجلالة الإمبراطور، والإمبراطورة، ثم تقدمت ابنة المستر هرتك قنصل أمركا في يافا، وقدمت طاقتين من الزهر لجلالتهما فسرّاً، وسار جلالتهما حتى بلغا المستعمرة الثانية للألمان الكائنة ضمن يافا، فشاهدا حينئذٍ تلامذة المدارس الرشدية، وسواهم بأياديهم الأعلام العثمانية والألمانية وكانوا ينشدون الأناشيد الرخيمة، ويهتفون بالدعاء، ونزل جلالتهما هناك بلوكندة[1] البرق، فأطلقت عندئذ البواخر الراسية في الثغر ٢١ مدفعاً، وما توارت الشمس بحجابها إلا وقد برزت يافا كعروس تختال تيهاً وعجباً بحلة من الأنوار براً وبحراً وخصوصاً سراي الحكومة السنية، والثكنة العسكرية، والمستعمرة الألمانية، ودير

---

(١) هي اللوكندة التي أعدها لجلالتهما المستر كوك وقد استأجرها من الخواجا موريس الألماني تلك الليلة بألف ومائتي ليرة، أما اللوكندة وما حوته من الرياش، فحدث عنها ولا حرج إذ قد توفرت فيها الأدوات الذهبية والفضية، وقد جعل في غرفها معرض للعاديات والآثار القديمة العهد البديعة، وفيها حديقة غناء حوت من كل فاكهة زوجين.

الـروم الأرثـوذكس، وكانـت الأسـهم النارية تـشق كبـد الـسماء، والعثمانيون لم يكونوا يومئذٍ أقل من الألمان فرحاً وترحيباً بالزائرين الكريمين، وقد أقامت البلدية من الزين البديعة ما حدا إلى شكر عزتلو حافظ بك السعيد وكيل رئاسة البلدية الذي أظهر من علو الهمة في أمر تنظيم الشؤون ما يذكر، فيشكر، وقد بعث جلالته يومئذٍ برسالة برقية إلى الحضرة العلية السلطانية مؤداها: «إن الاستقبال الذي حصل لي في يافا كان حسناً والتزيينات جيدة، ولا سيما الدائرة البلدية، فإنها كانت تتلألأ بالأنوار على طراز بديع، فأقدم الشكر لجلالتكم»، وصباح الجمعة عند الساعة الثامنة افرنجية ركب جلالته جواداً نادر المثال في ارتفاعه، وهكذا جلالتها، وتبعهما عربة تقل نساء الشرف، وسارا فارسين في موكب حافل يتقدمهم دولتلو ناظم باشا قاصدين الرملة[1] التي تبعد ساعتين عن يافا حيث أعد لهما طعام الغداء، فأطلقت المدافع من البوارج الألمانية، والعثمانية في ميناء يافا إجلالاً وتكريماً، ولما بلغا الرملة نزلا في المضارب المعدة لهما أمام الجامع الأبيض، وكانت المدينة حينئذٍ متدثرة بالأزهار والرياحين ومن فوقها الأعلام في مخافقها تترنح طرباً لقدوم الضيفين الكريمين، فلما استقر بهما المقام استمثل جلالته لديه جناب مدير الناحية رفعتلو محمود أفندي

---

(١) كانت قبلاً مدينة عظيمة وقصبة فلسطين، وكانت ملك داود وسليمان ورحبعام تحتوي على الفواكه الكثيرة أما هواؤها فنقي جداً، وإليها ينسب خير الدين الرملي صاحب الفتاوى المشهورة أما الآن فإنها أصبحت بلدة صغيرة وهي تبعد عن يافا ثلاث ساعات وعن القدس تسع إلى غربي الشمال الغربي، وعدد سكانها يبلغ ٨٠٠٠ ثمانية آلاف، وهي مركز مديرية تابعة لواء القدس، وفيها أبنية جميلة، وعدة جوامع، ودير للاتين، وبرج من بناء العرب.

شمس الدين الحسيني، فسأله باللغة الإنكليزية مسائل تتعلق بالمدينة فبسط لديه لمحةً من تاريخها وسألته جلالتها بالإفرنسية مسائل تتعلق بهوائها، وبعد ذلك ركبا عربتهما بموكب عظيم قاصدين أترون[1] حيث أعد لجلالتهما طعام العشاء والمبيت، فبلغاها محفوفين بالمسرة والهناء، وبأثناء قدومهما مرّا تحت قوس نصر متقنة نصبها سليم أغا بوغوش شيخ صلح ناحية بني مالك تجاه قرية »العنب«، ولما أمسى المساء برزت تلك القرية وما جاورها من القرى بحلل من الأنوار بديعة. ولما كان صباح اليوم الثاني ذهب جلالتهما راكبين مركبة تجرها ستة من جياد الخيل قاصدين القدس محفوفين بموكب عظيم من الوزراء والأمراء والحاشية الكريمة والعساكر الشاهانية والحرس الملوكي، ولما بلغا قرية أبي غوش استقبلهما عدد من وجوه البلاد راكبي الخيول، وأخذوا يلعبون بالرماح والسيوف، وقد ساروا أمام جلالتهما نحو ساعة، ثم عادوا، ولما صاروا على مقربة من القدس نزل جلالتهما من العربة وصليا شاكرين الله لوصولهما إلى أورشليم بسلام، ثم ركبا الخيول الجياد، وساروا بموكب حافل قاصدين القدس.

❖ ❖ ❖

الإمبراطور في القدس

بلغ جلالتهما القدس عند الساعة الحادية عشرة قبل الظهر، فأطلقت المدافع من المدينة إجلالاً لهما وتكريماً، وصدحت الموسيقى

---

(١) هي قرية صغيرة تبعد عن الرملة نحو أربع ساعات، وهي ما يدعى حالياً اللطرون.

بالألحان الألمانية، وأخذت سلامهما العساكر الشاهانية الظافرة، واستقبلهما دولتلو ناظم باشا، وسعادتلو توفيق بك متصرف القدس، وكل من حضرة قومندان العساكر الشاهانية، وياسين أفندي الخالدي رئيس البلدية، وبرزت مدينة القدس يومئذٍ تكسوها حلة خضراء بديعة محوكة من الرياحين مطرزة بالأزهار والرايات تخفق فوق المنازل وعلى جوانب الشوارع ولا سيما على الطريق المؤدية من المضارب المعدة لجلالتهما إلى كنيسة القيامة، فإن البلدية نصبت عند طرفي هذه الطريق قوسين جميلي الشكل مزدانين برسم جلالتهما في صدر كل منهما الشعار الألماني فوقهما الهلال العثماني الشريف، ونصب اليهود في منتصف الطريق قبة مزدانة بالرايات العثمانية والألمانية وبالآنية الفضية والذهبية ككأس القدوس والمبخرة وتيجان التوراة وبالأنسجة التي كتبت عليها العشر وصايا وستارات الهياكل إلى غير ذلك من الرموز الذي تدل على اسباط بني إسرائيل الاثني عشر ومن تحتها إلى الجانبين حجرتان يغشاهما قماش من حرير مزركش بالقصب أعدتا لجلوس كبار هذه الطائفة عند مرور جلالتهما وقد كتب بصدر القوس من إحدى الجهتين باللغة الألمانية «مبارك الآتي باسم الرب»، ومن الجهة الثانية «فلتعش الملكة» ولما كانت الساعة الثالثة والنصف من بعد الظهر رغب جلالتهما في زيارة القبر المقدس فصُفّت العساكر إلى جانبي الطريق، وساروا في موكب عظيم جداً بعد أن ركب جلالته جواده الأشهب وارتدى حلة عسكرية صفراء فوقها برنس حريري، وركبت جلالتها عربة تجرها أربعة من جياد الخيل، وركب معها ثلاث من نساء الشرف، وكان ألوف من الناس بسروات الطريق، وفي القصور العالية، والشرفات البعيدة، وعلى فروع الأشجار والموسيقى

العثمانية تشنف الآذان بأطيب الألحان، ولما بلغ جلالتهما قبة اليهود احتفل كبار هذه الطائفة باستقبالهما وفي مقدمتهم حضرة الحاخامين بخور الياشار وشمويل سالانت احتفالاً عظيماً، وهتفوا مع تلامذة مدارسهم بالدعاء بإطالة بقائهما هتافاً كبيراً، وخطب الحاخام خطاباً ترحيبياً، ثم رفع إلى الإمبراطور كتاباً ضمن ظرف، فوقف جلالتهما حينئذٍ، وأبديا شكرهما وامتنانهما من حسن الاستقبال، وكانت الرياحين وهما سائران قد كست أديم الأرض من طريقهما حلة خضراء، ولما بلغا القوس الأولى من القوسين اللتين نصبتهما البلدية استقبلهما ياسين أفندي الخالدي المشار إليه بخطاب هنأهما به بسلامة الوصول بالنيابة عن أهل المدينة، فشكره جلالته قائلاً: «إنه يؤمل دوام المحبة بينه وبين الذات الشاهانية كما يؤمل أن سياحته هذه تجعلها غير منفصحة العرى»، ولما بلغا باب الخليل استقبلهما بنات المدارس الألمانية بالترتيل والدعاء، ثم ترجل جلالتهما، وسارا ماشيين على الأقدام إلى أن بلغا باب كنيسة القيامة الكبير حيث كانت الجنود واقفة لأخذ السلام، فاستقبلهما غبطة الحبر المفضال السيد لودفيكوس بيافي بطريرك اللاتين، فخطب باللاتينية مرحباً بهما وإذ صارا عند المغتسل وسط الكنيسة استقبلهما غبطة الحبر المفضال السيد ارتينيان بطريرك الأرمن الأرثوذكس فرحبَّ بهما بخطاب خطبه باللغة التركية، ثم استقبلهما أمام القبر المقدس غبطة الحبر المفضال البطريرك داميانوس بطريرك الروم الأرثوذكس، فخطب باللغة اليونانية مرحباً بهما، وسألهما الدخول لزيارة القبر المقدس، وكان حينئذ حضرة الأب الأرشمندريت كيرافتيموس وكيل القبر المقدس واقفاً لاستقبالهما، فدخلاه، وسجدا، وصليا، وبعد ذلك دخلا كنيسة الروم الأرثوذكس

الخصوصية المعروفة بكنيسة نصف الدنيا الكائنة ضمن الكنيسة الكبرى، فأعجبهما ما شاهدا فيها من الزخارف البديعة والأواني النفيسة، وقد عرض عليهما إذ ذلك غبطة البطريرك داميانوس على مائدة مخصوصة التحف والهدايا المهداة إلى الكنيسة وهي: شمعدانان من الفضة النقية ثقلهما ١٣ أقة، وقنديل من الفضة أيضاص ثقله أقَّتان هدية المغفور له البرت دي بروسيا أخي المغفور له جده غليوم الأول في سنة ١٨٤٣، وصليب من البرلنت الخالص هدية من الملك ميخايل باليلوغوص، وصورة وجه السيد المسيح مرصعة بالماس الخالص هدية من ددیان ملك منكريليا، وإنجيل مذهب ومرصع بالماس من يوان بورس أحد إمبراطوري روسيا، وعظام الشهداء، وأيقونة الرسل الاثني عشر مذهبة في علبة من البلور وجدت على مائدة كنيسة مار يوحنا في عهد الصليبيين، فسرّ جلالتهما من ذلك، وبعدئذ أخذ المرتلون يرتلون باليونانية نشيد دعاء لهما ولعظمة المتبوع الأعظم، ثم طافا حول القبر والمقامات المقدسة في كنيسة نصف الدنيا ومغارة الصليب وكنيستي اللاتين والأرمن وعمود الجلد والجلجلة حيث صلب السيد المسيح، ولما فرغا من الطواف خرجا ومن معهما من الوزراء والكبراء، فقرعت الأجراس، ثم ذهبا لزيارة كنيسة المخلِّص الألمانية بالقرب من كنيسة القيامة فكانت هنالك الجالية الألمانية تنتظر قدومهما الميمون، وكان في مقدمتهم حضرة كاهن الألمان وقرينته فتلا كل من هذين خطاباً بالألمانية ضمنَّه الدعاء لجلالتهما ثم دخلا أبنية الكنيسة القديمة وبعد أن شاهدا ما فيها من الآثار القديمة عادا إلى حيث كان الموكب العظيم ينتظر قدومهما، فرأى جلالته حينئذ دولة المشير شاكر باشا، فصافحه يداً بيد، ثم ركب جلالته جواداً، وجلالتها ركبت

عربية تجرها أربعة أفراس وإلى جانبها إحدى نساء الشرف، وذهبا إلى المضارب وقد بدا من جلالته ارتياح حينئذ إلى قبول زيارة البطاركة المشار إليهم، وبقية الرؤساء الروحيين، وقناصل الدولة الفخيمة في قنصلاتو دولة ألمانيا الفخيمة، فحضروا جميعاً في الوقت المعين وهو الساعة ٥ بعد الظهر بالألبسة الرسمية، فجعل جلالته يخاطبهم بهشاشة وبشاشة ولا سيما سيادة المطران سالسبوري مطران الإنكليز الذي قد حضر إلى القدس الشريف لتدشين كنيسة إنكليزية، وكانوا جميعاً واقفين لديه، وقد خص بطريرك الروم المشار إليه بقوله: إني أشكرك أولاً لما أظهرت من المحبة نحوي ثانياً لما أريتني من التحف في الكنيسة ثالثاً لأنني أُستقبلت في الكنيسة التي استقبل بها المرحوم والدي وكان الترجمان حينئذ المسيو لتشندروف قنصل ألمانيا في القدس.

أما المضارب التي أعدت لنزول جلالتهما في القدس فهي قريبة من بيوت الجالية الألمانية في بقعة أرض فسيحة في جهة الشمال الشرقي وهي عديدة، وأعظمها المضرب الذي فرش بالرياش الثمينة، وقد قام فوقه على عمود تاج ملوكي وكرة من الذهب الخالص، وقد اتخذ بمثابة قاعة لجلوس جلالتهما، وقد جعل حول المضارب ٢٥ نقطة للحرس في كل نقطة حارسان أما المحافظة على مضربه الخاص، فقد عهد بها إلى رجال آلاي العسكر الزحاف ليس غير، وكان سر الليل محصوراً بجلالته لا يبوح به إلا للحرس فقط بواسطة جاويشي الاي الزحاف اللذين كانا يرافقان جلالته بأثناء مسيره دائماً، وهما محمد آغا بدوي، وحسن آغا محمود من قضاء مرجعيون. وقد دعا جلالته لمناولة طعام العشاء على مادته الكريمة مساء الاثنين في ٣١ ت١ سنة ٩٨ كلاً من حضرة دولتلو ناظم باشا،

وقمبفنر باشا، وتوفيق باشا، وشاكر باشا، وسعادتلو عبد الله باشا، وغيرهم من كبار المأمورين العثمانيين، ومن كبراء وزراء الألمان، وبعض رؤساء المقاطعات الألمانية الذين دعاهم للحضور معه من برلين، فجلسوا على مائدة واحدة، وسهروا لحد الساعة ١٠ مساءً، وكانت الموسيقى الألمانية تصدح بأطيب الألحان، وفي الليلة الثانية تعطف، وجلس على مائدة الضباط، وتناول طعام العشاء معهم.

وكان جلالته في الغالب ينام الساعة ٩ مساءً ويستيقظ عند الساعة الخامسة صباحاً.

وقد تقدم لجلالتهما من قبل بلدية القدس مجموعة رسوم المناظر من حيفا إلى القدس بغلاف من صدف مصفحة قرنيه بالذهب، ثم رسم الصخرة المقدسة مؤلفاً من صدف نقي.

وقدمت لديهما كريهة[١] عزتلو إسماعيل بك مدير المعارف بالقدس رسم الطغراء الهمايونية مزركشة بالذهب.

❖ ❖ ❖

الإمبراطور في بيت لحم

لما كانت الساعة ٩ من صباح يوم الأحد في ٣٠ تشرين الأول سنة ٩٨ سار جلالته في موكب حافل لزيارة بيت لحم[٢]، وكانت الطرق

---

(١) الأصح كريمة.

(٢) مدينة قديمة العهد على بعد ساعة من القدس وفي سنة ٣٣٠ للمسيح بنت فيها القديسة هيلانة كنيسة كبيرة فوق المغارة التي ولد فيها المسيح وهي أقدم كنيسة مسيحية في العالم قائمة على نحو خمسين عموداً طول الواحد منها أربعة أمتار ومحيطه نحو متر ونصف، وعلى جدرانها كثير من الآثار، ومن الفسيفساء والكتابة اليونانية، وبجانبها دير للروم الأرثوذكس، وله قبة ذات سبعة أجراس يزن الصغير منها نصف قنطار، والكبير سبعة قناطير =

مزدانة بالرايات والرياحين على نحو ما تقدم من الوصف، وكانت البلدية قد نصبت في أوائلها قوس نصر بديع مزدان بالأزهار والأعلام العثمانية والألمانية، فاستقبله في الطريق الحاج رشيد أفندي عريقات وجماعة من العربان يلعبون بالرماح، وقد بلغا كنيسة الألمان الكائنة بظاهر المدينة عند الساعة ١٠ صباحاً، وبعد أن قضيا زيارتهما أتيا كنيسة بيت لحم حيث كان المدير رفعتلو إسماعيل أفندي حقي ورئيس البلدية سليمان أفندي الجاسر وعدد من العساكر الشاهانية لأخذ سلامهما وتلامذة المدارس البطريركية الأرثوذكسية بالأناشيد الشجية، فدخلا أولاً من باب دير اللاتين حيث استقبلهما غبطة السيد بباقي وقد تطرقا منه إلى الكنيسة

= بناها غبطة السيد اسبريدون بطريرك أنطاكية السابق منفقاً عليها من ماله، فبلغت النفقة نحو ألفي ليرة، ودير للاتين متقن البناء وعلى طراز جديد، ودير للأرمن، وأما المغارة التي ولد فيها المسيح، فقد أقيم عليها هيكل للروم والأرمن معاً، وقد وضع فيها صفيحة من رخام وجعل في الصفيحة من الفضة ما هو بشكل نجمة إشارة إلى النجم الذي ظهر يوم ولادة المسيح والمهد (المذود) الذي وضع فيه المسيح بعد الولادة قد أقيم عليه هيكل للاتين أما عدد سكان هذه المدينة، فيبلغ ثمانية آلاف نفس، وما زال الرجال من أهلها كسواهم من أهل القرى المجاورة يعتمون بالعمائم الصفر يتخللها خطوط مختلفة الألوان أما النساء، فالمتزوجات منهن يلبسن على رؤوسهن قلنسوة معروفة عندهن بالشتوه مرصعة من الأمام بقطع من المعاملة (النقود) القديمة على نحو ما كان في لبنان. أما العذارى فإنهن يلبسن كما تلبس القرويات في لبنان.

يوجد في بيت لحم دير أيتام للاتين وكنيسة للبروتستانت، وكنيسة للبروسيان جديدة، ودير للإنكليز، ومغارة السيدة للاتين، ومغارة الرعاة على بعد نصف ساعة من بيت لحم.

الكبرى، فاستقبلهما غبطة بطريرك الأرمن أمام هيكل الأرمن الكائن في الكنيسة، ثم استقبلهما في هيكل مار نقولا للروم الأرثوذكس غبطة البطريرك داميانوس، وبعد أن طافا في الكنيسة نزلا إلى المغارة التي ولد فيها السيد المسيح، فاستقبلهما بطريرك الروم المشار إليه، وقد كشف لجلالته حينئذٍ سيادة المطران اسطفانوس وكيل مطران بيت لحم للروم الأرثوذكس شيئاً من تاريخ هذه الكنيسة القديمة باللغة الإنكليزية، ثم زارا المهد بجانب المغارة، وخرجا بعدئذٍ من الباب الغربي فزارا كنيسة الروم الأرثوذكس، ثم طافا في الكنيسة الكبرى المعروفة بالبازليك المحتوية على العواميد المشار إليها، وخرجا من الباب الحديدي الصغير، فركب جلالته جواداً، وركبت جلالتها عربة، وسارا إلى مدرسة الألمان المنشأة حديثاً للأيتام في بيت لحم، وبعد أن شربا المرطبات فيها سارا إلى القدس الشريف، فبلغها جلالته الساعة الواحدة بعد الظهر، أما جلالتها، فذهبت إلى بيت جالا، وبعد نصف ساعة عادت إلى المضارب وبأثناء ذلك ذهب غبطة السيد داميانوس بطريرك الروم الأرثوذكس يحف به كل من سيادة السيد فوتيوس مطران فلادلفيا وحضرة الأرشمندريت غليكاريوس الترجمان الأول لدير الروم، وقدموا لجلالته هدية هي «البوم» يحتوي على صور جميع أديار الزيارة المختصة بالبطركية الأرثوذكسية في فلسطين وغلاف هذا الألبوم قد رصع بالصدف النقي ترصيعاً بديعاً ظهر منه رسم الملاك الذي بشر النسوة حاملات الطيب بالقيامة، ورسم جلالتهما، ورسم والدي، وجدي جلالته، وصورة التاج الملوكي الألماني، فأظهر جلالته ارتياحه لقبول هذه الهدية شاكراً.

❖ ❖ ❖

الإمبراطور وبطاركة القدس

بعد ظهر الثلاثاء في ١ تشرين الثاني سنة ١٨٩٨ زار جلالته غبطة البطريرك ارتينيان بطريرك الأرمن الأرثوذكس في مقره، فاحتفل بقدومه احتفالاً كبيراً، وفي صباح اليوم الثاني زار جلالته غبطة السيد لودفيكوس بيافي في مقره، فبالغ غبطته في إكرام جلالته، وقد طالت هذه الزيارة إلى نحو خمس وثلاثين دقيقة لم يكن لديهما في حجرة الاستقبال سوى سيادة المطران أبوديا، ثم ودّع جلالته غبطة البطريرك مظهراً ارتياحه لما جرى له من حسن الاستقبال، وسار قاصداً غبطة السيد داميانوس بطريرك الروم الأرثوذكس الذي احتفى بجلالته احتفاءً كبيراً قائلاً: إنني أشكر الله لأنني اقتبل الآن في محلي الحقير أحد أعاظم الملوك الذي أصبح تشريفه مرسوماً على صفحات قلوب أخوة القبر المقدس كما سيرسم على صفحات التاريخ، وختم قوله بالدعاء للحضرة السنية السلطانية، ولجلالته، وللأسرة الإمبراطورية الكريمة، فأجابه جلالته قائلاً: إنني ممنون مما جرى لي من حسن الاستقبال، ولأنه تيسرت لي الصلاة في دير الروس في جبل الزيتون، وقد حررت لجلالة القيصر بذلك، فأجابه غبطته قائلاً: إننا سنذكر هذه الزيارة مدى العمر شاكرين، ونرجو أن تنظروا إلينا دائماً بعين الرضى، ثم عرض عليه على مائدة مخصوصة كتباً دينية خطية قديمة كتبت على رق غزال في القرنين الثامن والعاشر، فسر جلالته من ذلك، وبعد أن شرب المرطبات أخذ المرتلون بترتيل نشيد تضمن الدعاء لجلالته، ثم ذهب مشيعاً كما استقبل بالتكريم والتعظيم، وقد أهدى يومئذٍ غبطة بطريرك اللاتين رسمه ورسم جلالة الإمبراطورة الكريمين.

الإمبراطور في كنيسة المخلص الألمانية

عند الساعة التاسعة من صباح الاثنين في ٢١ ت ١ بدا من جلالته ارتياح لتدشين كنيسة المخلص الألمانية، فصفت العساكر العثمانية والألمانية أمام الكنيسة من الناحية الغربية ورجال الشرطة من الناحية الشرقية، ومن حول الكنيسة احتشد ألوف من الناس، وكانت هنالك زينة من الأزهار والرياحين جميلة والرايات العثمانية والألمانية تلوح في مخافقها، وقبالة باب الكنيسة رسم عظمة متبوعنا الأعظم مرفوع على مكان خاص بدير الروم الأرثوذكس، وإلى جانبي الرسم رسما جلالتهما كل ذلك ضمن إطار بديع الصنع تخفق فوقه الأعلام، ولما كانت الساعة التاسعة والنصف أقبل كهنة الألمان وفيهم سيادة مطرانهم على رأسه قبعة طويلة سوداء وعلى كتفيه وشاح من الحرير الأصفر، وعلى صدره نيشان ألماني وصليب، وأمامه رجل بثياب سوداء، وبيده عصا الرعاية عصا من فضة ذات قبضة من ذهب مزخرفة، وكان هنالك أربعة من الكهنة بيد أحدهم الكتاب المقدس مصفحاً بالفضة ورسم الصليب المقدس على جناحه الأيمن، وأما سائر الكهنة، فيحملون كأساً كنائسية من فضة وصفيحتين إحداهما كبيرة من فضة والأخرى صغيرة من ذهب، وكان على صدر كل منهم شارة بيضاء وعددهم (٢٠) كاهناً، ثم أقبلت الجالية الألمانية من رجال ونساء ثم الوزراء العثمانيون، ثم الوزراء الألمان، ثم الضباط من عثمانيين وألمان كلهم بالكساء الرسمي ثم الحرس الملوكي بقبعات مختلفة الأشكال فمنها ما هو من ذهب، ومنها ما هو من فضة على شكل الخوذة، ومنها ما هو على هذا الشكل إلا أنه أسود اللون، ومنها ما هو عليه رسم النسر الألماني من ذهب وفضة، ومنها ما

كسي بجدايل شعر مسترسلة بين أسود وأبيض. وبالجملة، فإن القبعات كادت أشكالها تفوق العشرين شكلاً، ثم ما لبثت أن قرعت أجراس الكنيسة، وصدحت الموسيقتان العثمانية والألمانية بنغماتهما، فإذا بصاحبي الجلالة قد أشرقت طلعتهما مقبلين من باب الكنيسة الخارجي الجنوبي يحف بهما عدد من الوزراء والعظماء والحرس الإمبراطوري، فأخذت سلامهما العساكر الشاهانية والألمانية، أما الإمبراطور، فكان باللباس العسكري من لون رمادي وبقبعة من الذهب عليها رسم النسر من الذهب أيضاً تغشاها كوفية من حرير بيضاء مطرزة بالذهب وعلى كتفيه عباءة بيضاء مطرزة على هذه الصورة (وهما من مصنوعات بلادنا) أما الإمبراطورة، فكان ثوبها من الحرير الأبيض وعلى رأسها قبعة بيضاء ومن تحتها إلى اليسار من الجهة الخلفية طاقة من الورد (وكوفية مثل كوفية الإمبراطور)، وبيدها اليسرى مظلة بيضاء، ولما دنوا من باب الكنيسة تقدمت إليها ابنة بثوب أبيض لا تتجاوز من العمر أكثر من ست سنوات، وقدمت للإمبراطورة طاقة من الورد وغيره من صنوف الزهر، ثم خطب اثنان من الحاضرين، ولما فرغا تقدم كاهن بيده مفتاح الكنيسة، فسلمه لمن كان بيده الكأس، فصلى عليه، ثم فتح الباب، ودخل الكهنة، ثم الإمبراطوران، أما الإمبراطور، فمن المصرع الجنوبي من مصراعي الباب، وأما الإمبراطورة فمن الجانب الشمالي ثم الوزراء، ثم الضباط، ثم الحرس، وقد بقي اثنان من هؤلاء أمام الباب حاملين كل واحد منهما علماً ملكياً أحد العلمين بلون أحمر إلى ذات الشمال، والثاني بلون اصفر إلى ذات اليمين واثنان من عسكر آلاي الزحاف العثماني وبيد كل منهما بندقية، ثم قفل الباب، وفي الكنيسة مئات من المدعوين لشهود الاحتفال، فأخذ المرتلون يرتلون

توقيعاً على نغمات الأرغن والموسيقى الألمانية، وكان جلالتهما جالسين على كرسيين من جلد نفيس أحمر يضرب إلى السمرة في وسط الكنيسة للجهة الشمالية وتحت أقدامهما لوح من خشب مغشى بالحرير الأحمر، وكان المدعوون جالسين إلى ورائهما على مقاعد الكنيسة وهي اثنان وخمسون مقعداً بين صغير وكبير، وكلها من خشب الجوز وقد خطب حينئذٍ حضرة الأب هبي الألماني، ثم اثنان غيره من قسس الألمان، ثم قام رئيس الأساقفة، ومنح البركة، ثم وقف جلالته في صدر الكنيسة أمام الهيكل، وخطب بالألمانية خطاباً دينياً استغرق من الوقت ثلاثين دقيقة مؤداه: إن مجيئي إلى القدس الشريف لم يكن مبنياً على غايات سياسية، بل لأنني كنت أميل إلى زيارة هذه المدينة المقدسة التي مات فيها السيد المسيح، ثم قام وصعد إلى السماء وقد كان في خاطر أبي وأجدادي تشييد كنيسة مسيحية إنجيلية في هذه المدينة، فبدأوا بوضع أساس هذه الكنيسة التي قد تم إنشاؤها بواسطتي. وقد ختم جلالته خطابه بقوله: إن إيمانه ثابت على الصخرة التي هي السيد المسيح، وأنه يستمر متمسكاً بالإيمان الحقيقي بالرب يسوع وسيجاهد إلى النهاية الجهاد الحسن لمجد الله وخير الكنيسة، وإن السلام يجب أن يكون سائداً كما كان من قبل، ثم عادوا إلى الترتيل، وبعد أن فرغ من ذلك الاحتفال خرج صاحبا الجلالة وكانت الساعة الحادية عشرة، فأخذت العساكر العثمانية والألمانية سلامهما، وصدحت الموسيقتان العثمانية والألمانية بألحانها الشجية. أما جلالته فخرج من الجانب الشمالي من الباب وأما جلالتها، فمن الجانب الجنوبي وإذ كانت قد هبت الريح حينئذٍ وأزاحت الكوفية التي كان يلبسها جلالته غشاءً على قبعته، فمدت جلالتها يمينها الكريمة، وأعادتها إلى موضعها،

ثم دخلا المباني القديمة بجانب الكنيسة، وبعدئذٍ ذهبا محفوفين بالإجلال والتعظيم.

❖ ❖ ❖

الإمبراطور في صهيون واستلامه قطعة الأرض

عند الساعة الثالثة بعد ظهر يوم الاثنين في ٣١ تشرين الأول سار جلالتهما بموكبٍ حافلٍ إلى مكان النبي داوود المعروف بعلية صهيون[١]، ولما بلغا المكان المشار إليه تقدم حضرة سعادتلو توفيق بك سفير الدولة العلية في برلين، وأهدى جلالته باسم الحضرة العلية السلطانية أرضاً في ذلك المكان تبلغ مساحتها نحو ألفي متر مربع، وحضرة متصرف القدس قدم لديه أوراقها الطغرائية الرسمية الواردة من الأستانة العلية، فاستلمها بيده الكريمة، وسلمها إلى وزير خارجية دولة ألمانيا المسيو دوبلوف، وتقدم حينئذٍ حضرة صاحب الفضيلة الشيخ سعيد أفندي الداوودي صاحب الأرض أمام جلالته قائلاً: بناءً على الصداقة الكائنة بين جلالتكم وعظمة متبوعنا الأعظم، فإننا نقدم لجلالتكم الأرض (ونحملكم على الراحات). كذا. وللحال رفع فيها العلم الألماني والعلم الملوكي الخاص، وصدحت الموسيقى الألمانية وأخذ الجند الألماني الذي كان

(١) هو المحل الذي غسل فيه السيد المسيح أقدام التلاميذ وصنع العشاء السري، وظهر لتلاميذه بعد قيامته، وفيه اجتمعت الرسل بعد الصعود الإلهي وحل عليهم الروح القدس.

واقفاً هنالك وعدده نحو مائتي شخص سلام جلالتهما وقد خطب جلالته حينئذٍ قائلاً: إن ساكن الجنان السلطان عبد الحميد العزيز خان أهدى المرحوم والدي الأرض التي بنيت فيها الكنيسة التي تم تدشينها اليوم، وأما عظمة صديقي السلطان عبد الحميد خان، فقد أهداني هذه الأرض، وكما أننا بنينا في الأولى كنيسة للألمان الإنجيليين، فسنبني في هذه كنيسة للألمان الكاثوليكيين، فشكراً لعظمته، ولآل عثمان العظام، ثم وزع على الجنود الألمانية جميعاً المداليات التي صنعت تذكاراً لذلك، وسلم جلالته الأرض حينئذٍ لغبطة السيد لودفيكوس بيافي بطريرك اللاتين باسم قداسة البابا، فقبلها ناطقاً بالشكر، ثم بعث جلالته برسالة برقية إلى قداسته قال فيها: إنني بواسطة جلالة السلطان الأعظم الذي أيّد بالدليل الساطع صداقته المخلصة قد ملكت في أورشليم الأرض المعروفة بمحل نياح السيدة جازماً أن أضع هذه الأرض المقدسة بين أيدي رعاياي الكاثوليكيين، فإنه يسرني أن أثبت أهمية الصوالح الدينية للكاثوليك الذين سلمتهم العناية الإلهية لي، وبالختام أسأل قداستك قبول تعلقي الخالص الأكيد) أما جواب قداسته فهو: لقد ابتهجنا جداً بالرسالة البرقية اللطيفة التي تفضلت عظمتك بإرسالها إلينا لإعلامنا بعزمك على إعطاء محل نياحة العذراء القديسة التي تملكته إلى رعاياك الكاثوليكيين، وقد قابلنا ذلك بملء الرضى، ولا شك أن الكاثوليكيين يشكرون عظمتك على ها التفضل مزيد الشكر وبكل مسرة نضيف تشكراتنا إلى تشكراتهم.

❖ ❖ ❖

الإمبراطور في جبل الزيتون وبستان الزيتون

لما كان يوم الأحد في ٣٠ ت١ ذهب جلالتهما عند الساعة الرابعة بعد الظهر بموكب حافل إلى جبل الزيتون حيث جرى استقبالهما بما يليق بجلالتهما من الاحتفال والاحتفاء من قبل وكيل سفارة الروس الروحية في القدس الأرشمندريت رافائل، وقدمت لهما المشروبات الروحية، ثم صعدوا على الأسطحة ومنها إلى قبة الأجراس حيث رأيا بنظارة كبيرة جميع الأماكن المقدسة التي لم يذهب إليها، وأخذ رسم القدس حينئذ. وكان المطران سالسبوري مرافقاً جلالتهما، فخطب خطبة دينية مؤثرة بيّن فيها عظم أهمية الأماكن المقدسة، وبعد ذلك صليا، وقدما الشكر لله، ثم إن جلالته بعث برسالة برقية إلى جلالة القيصر يثني على ما رأى من حسن الاستقبال. ويوم الثلاثاء زارا بستان الزيتون[1] حيث صلى المسيح، ثم

(١) هو البستان الذي صلى فيه المسيح يشتمل على أربع شجرات من الزيتون كبيرة عتيقة، وهو للاتين، وأمام البستان مصلى وقف فيه المسيح لما تلا الصلاة الربانية، وأمام المصلى صخرتان نام عليهما بطرس ويوحنا عندما كان المسيح يصلي، وإلى شرقيهما كنيسة بناها الإمبراطور اسكندر الثاني على اسم القديسة مريم المجدلية (سمية والدته) بناها على طرز جميل ونحتت حجارتها نحتاً عجيباً وجعل فوقها قبة يصعد إليها بخمس وستين درجة علق فيها سبعة أجراس، وفوق ذلك جبل الزيتون، وفيه دير للروس، ودير للروم، ودير للراهبات اللاتين يحتوي على ست وثلاثين راهبة متحجبات فيه، وقد كتبت على جدرانه من الخارج الصلاة الربانية باثنتين وسبعين لغة. أما دير الروس فقد استدل مما فيه من الآثار أن قصر هيردوس كان هنالك، ومن تلك الآثار رسوم بشرية، ورسوم بط ودجاج وسمك وحجل وكتابات يونانية وسريانية. =

زارا جبل الزيتون تكراراً، وقد أمر بأخذ رسم جلالته يومئذ، فأُخذ، وكان راكباً حينئذٍ جواده الأشهب ولابساً ثوباً عسكرياً، ومدرعاً بالدرع الألماني ومتّشحاً بالبرنس الحريري الأبيض، وعلى رأسه كوفية حرير بيضاء.

❖ ❖ ❖

الإمبراطور في الحرم الشريف

عند الساعة التاسعة من صباح يوم الأربعاء في ٢ ت٢ سنة ١٨٩٨ بدا من جلالتهما ارتياح لزيارة الحرم الشريف[١] ، فصفت العساكر على جانبي الطريق، وذهب جلالتهما في موكب حافل تحف بهما الوزراء والأمراء، وقد دخلا أولاً من الباب الشرقي، ومنه ذهبا إلى المسجد

= وفي جبل الزيتون المكان الذي قال فيه المسيح لتلاميذه (إنني سأذهب لأبي ولأبيكم) وبالقرب من مقام السيدة العذراء من جهة الشرق مغارة اختبأ فيها السيد المسيح قبل الصلب، وقد اتخذها اللاتين هيكلاً. وتحت كنيسة الروس بناحية الشمال الغربي منها بيت بناه الأمير بول الروسي جداره الخارجي من الجهة الغربية على الصخرة التي اضطجعت عليها البتول مريم طلباً للراحة وهي نازلة من جبل الزيتون، ولدى هذا البيت من الناحية الشمالية بستان كان توما الرسول فيه يوم كانت السيدة مريم صاعدة إلى السماء وقد ألقت عليه المنطقة.

(١) أمام هذا الحرم قبة السلسلة قيل لها كذلك لأنها بنيت بناء متقناً على سلسلة من القناطر، عشر منها خارجية تحيط بثمان داخلية شيِّد في صدر الخارجية منها من الناحية الجنوبية المحراب، والثانية الداخلية مزينة بآيات من القرآن الشريف، وشكل هذه القناطر جميعها مثمّن يعلوها كلها تلك القبة قبة السلسلة.

الأقصى، فسرير سيدنا عيسى، فالأبواب الدهرية، فكرسي سيدنا سليمان، وكان يسير أمامهما حضرة الشيخ عبد القادر الدنف الملقب بالأنصاري، ثم خرجا من باب الأسباط المعروف بباب السيدة مريم بعد أن شاهدا تلك الأبنية العظيمة، وما فيها من الآثار الجليلة، ثم سارا إلى برك سليمان، فمدرسة سمث الألمانية الكاثوليكية، فمدرسة شالوتا الألمانية للبنات، ثم عاد جلالته إلى المضارب أمام الإمبراطورة، فقد ذهبت إلى دار الأيتام الألمانية، ثم لحقت بجلالته إلى المضارب وقد أمر يومئذٍ بأخذ رسوم العسكر الزحاف العثماني ورسوم العسكر الألماني.

صباح الخميس الواقع في ٣ ت٢ زار جلالتهما المستشفى الألماني وبيت الفقراء، ثم عادا إلى المضارب، وبعد الظهر ذهبا بعجلة، وزارا قبور الملوك وغيرها من الأماكن متفقدين الآثار القديمة التاريخية، ثم ذهبا إلى كنيسة المخلص، فحضرا الصلوة، ثم عادا إلى المضارب.

❖ ❖ ❖

وداع الإمبراطور في القدس

عند الساعة ٩ صباح الجمعة صفت الجنود على جانبي الطريق من المضارب إلى محطة السكة الحديدية، ثم خرج جلالتهما، فذهبا إلى المحطة، وركبا القطار المخصوص قاصدين يافا بين هتاف الألوف من الناس بالدعاء لجلالتهما.

الإمبراطور في يافا راجعاً من القدس

نهار الجمعة في ٤ ت٢ سنة ٩٨ عند الساعة الحادية عشرة صباحاً حضر قطار السكة الحديدية يقل الحاشية الإمبراطورية وبعض رجال الحكومة، ونحو الظهر أقبل القطار المخصوص مؤلفاً من أربع عجلات مفروشة بالرياش والحرير يقل جلالتهما، فنزلا إلى المكان المعدّ لهما في المحطة، وكانت أرضه مفروشة بالسجاد النفيس حيث كان واقفاً لاستقبال جلالتهما دولتلو ناظم باشا، وكل من حضرة وكيل القائمقامية، ووكيل رئاسة البلدية، وقومندان الموقع عزتلو شوقي بك، وصاحب الفضية نائب أفندي، وسواهم من كبار المأمورين بالألبسة الرسمية، وبعد أن حياهم جلالته، وأخذت سلامه العساكر الظافرة ركب جلالتهما العربة، وأمامهما حضرة توفيق باشا سفير الدولة العلية في برلين، فسارت العربة محفوفة بكثير من العربات تقل الوزراء والأمراء، وكانت يافا حينئذٍ لم تزل متدثرة بزينتها البديعة، وفي أثناء مسيرهما استقبلهما شهبندر دولة إيران بالأعلام العثمانية والألمانية والإيرانية وهو بلباسه الرسمي، وقد فرش فناء داره الفسيح بالطنافس النفيسة، وداستها الخيول بأقدامها، وقد أقيم لجلالتهما عند باب الكمرك قوس نصر مزدان بالأعلام والأزهار فرش ما تحته من الأرض على مسافة بعيدة بالطنافس أيضاً، وعند بلوغهما المينا نزلا إلى الزورق البخاري بعد أن أمسك بيدهما فتوتلو[1] عبد الوهاب أفندي رئيس المينا، وحينئذٍ أطلقت المدافع من السفن الراسية في الثغر، فبلغا اليخت «هوهنزولرن» على الطائر الميمون محفوفين بالأبهة والإجلال، ولما غابت الشمس

---

(١) فتوتلو: صاحب الفتوة.

مخر اليخت بجلالتهما إلى بيروت تخفره الدارعتان «هيلا» و«هرتا»
والباخرة «لورلي»، وكانت الناس على الرصيف تعد بالألوف أما
حضرة الوزراء العثمانيين، فكانوا قد ساروا على الباخرة «أزمير»
إلى بيروت عند وصول جلالتهما إلى اليخت «هوهنزولرن» .

❖ ❖ ❖

الإمبراطور في بيروت قادماً من يافا

يوم السبت في ٥ ت٢ بينما كان الناس في بيروت[1] ولبنان ينظرون من المشارف إلى البحر في صباح اليوم المذكور يرقبون قدوم

---

(١) إن بيروت بعد أن أخربها تريفون ١٤٠ ق. م لبقائها في طاعة الملك أنطيوخس السادس عادت إلى ما كانت عليه من سمو المنزلة، فلما دخلها بمبيوس القائد الروماني أحيا آثارها، وأعاد لها رونقها فشرعت ترتقي في سلم النجاح والفلاح حتى كان لها في عهد أوغسطس قيصر ما للرومانيين أنفسهم من الحقوق، فامتازت عن غيرها من المدن، وكانت في الدرجة الأولى، وألقيت مقاليد الأمر فيها إلى القائد مرقس فسبسيانس أغريبا بعد أن عقد له على جوليا ابنة أوغسطس قيصر، فدعيت بيروت باسمها جوليا فيليكس (أي السعيدة)، وبالغ اغر يبا في ترقية شؤون المدينة، وساعده في عمله هذا هيرودس الكبير، فشيدت في المدينة الأبنية والهياكل والمشاهد والحمامات ومخازن التجارة، فتزاحمت الأقدام إليها، أقدام الرومانيين والغرباء، وكثر الاستيطان بها، فازدادت بازدياد العمران بهاءً وجمالاً، وجعل بها فرقتان من الجنود الرومانيين المتقاعدين، وبها حكم هيرودس الكبير بالموت على ابنيه اسكندر وارسطا بولس ظلماً كما قتل أمهما مريمنة من سلالة المكابيين، ولبثت بيروت كذلك حتى تولى أمرها بعد المسيح هيرودس أغر يبا الأول، ثم هيرودس أغر يبا الثاني، فزادا في محاسنها زيادة يقصر عنها الوصف، وفيها بويع بالملك لفيسيانوس بعد موت نيرون، وفيها احتفل ابنه تيتوس قيصر بانتصاره على اليهود.

صاحبي الجلالة الإمبراطور غليوم الثاني والإمبراطورة قرينته إذا بيختهما هوهنزولرن يجري عند الساعة التاسعة من صباح ذلك اليوم في البحر تخفره الدوارع الثلاث «هرتا» و«هيلا» و«لورلي» الألمانية والدارعة العثمانية «آثار توفيق»، وكان البحر حيئنذ هادئاً ساكناً كأنه يدري بمن عليه من أهل التجلة والوقار، فلما أوشك الأسطول أن يدنو من الثغر جرت بوارجه صفاً واحداً الواحدة بعد الأخرى، ولبثت كذلك حتى دخلت الثغر عند الساعة التاسعة والنصف، فإذا الثغر يبتسم فرحاً وابتهاجاً بقدوم الزائرين الكريمين، وقد أطلقت المدافع من الدارعة «آثار توفيق» ومن الثكنة الهمايونية، ورفعت البارجة العثمانية «أورخانية» الراسية في الثغر العلم الألماني، فقابلتها الدارعة «هرتا» بمثل ذلك، وخف كل من حضرة صاحب العطوفة ملجا ولاية بيروت الجليلة، وحضرة الدكتور شرودر قنصل دولة ألمانيا العام في الثغر يصحبه حضرة الكونشليار المسيو دلهر، وجناب الوجيه جرجي أفندي متري سرسق ترجمان القنصلية إلى اليخت للمثول لدى جلالة الإمبراطور، ثم عادوا معلنين أن جلالته رغب عن الخروج إلى المدينة يومئذ ولما كان المساء برزت بيروت ولبنان بوشاح من الأنوار أنيق، وصدحت الموسيقى على الرصيف حيث كان حضرة ملجأ الولاية وبعض كبار المأمورين والوجوه بنغمات تطرب الآذان بأطيب الألحان، وأديرت كؤوس المرطبات على الحاضرين، ورصعت البواخر الراسية في الثغر وما حول الثغر من القصور والمنازل بدرر المصابيح إظهاراً لشواعر المسرة والابتهاج.

وبعد أن بلغ اليخت الثغر بعث جلالته برسالة برقية ينبئ الحضرة العلية السلطانية بوصوله إلى بيروت سالماً معافى، فورد الجواب بتهنئة جلالته بسلامة الوصول.

وعند الساعة الثانية بعد ظهر يوم الأحد ٦ ت٢ بدا من جلالته ارتياح إلى الخروج إلى البر، فصفَّت العساكر بسروات الطريق صفاً متقناً، وأقبل حضرة صاحب العطوفة ملجا الولاية وغيره من كبار المأمورين وأعضاء لجنة الاستقبال(١) إلى المكان المعين لجلالته مطلعاً على الرصيف حيث نصبت قبة متقنة الصنع مزينة بالرياحين والرايات مفروشة بالمفروشات النفسية يرقبون إشراق الطلعة الإمبراطورية من يختها (هوهنزولرن) في سماء الثغر فلما كانت الساعة الثانية والنصف من بعد الظهر إذا بصاحبي الجلالة الإمبراطور والإمبراطورة أقبلا في زورقهما البديع الاتقان، فاستقبلا استقبالاً كريماً، وصدحت الموسيقى بألحانها الشجية، وكانت تلامذة المدارس السلطانية، والمدرسة البطريركية واقفين وبأيديهم الأعلام العثمانية والألمانية والراهبات البروسيويات، وطالبات مدرستهن،

---

(١) إن أعضاء اللجنة التي كانت تعينت للاستقبال تألفت من المأمورين، من كل من حضرة أصحاب السعادة أدهم أفندي دفتردار الولاية، وأحمد كامل أفندي ناظر الرسومات، وفصيح بك المكتوبي، وعصمت بك قومندان الموقع، ومحمود جلال الدين أفندي مدير المعارف، وميشال أفندي أده مدير الأمور الأجنبية، وصفوت بك باشمدير التلغراف، وعبد القادر أفندي قباني رئيس البلدية، ومن كل من أصحاب العزة علي راسخ أفندي قائمقام الناصرة، وخيري بك طبيب العسكرية، وحسيب أفندي مدعي عمومي محكمة الاستئناف، وبشارة أفندي مهندس الولاية.

ومن الأعيان من حضرة أصحاب السعادة والعزة؛ محيي الدين أفندي بيهم، وموسى أفندي فريج، وسعد الدين باشا قباني، وحسن أفندي بيهم، وجرجي أفندي موسى سرسق، وحبيب بك السعد، والمسيو شيرول، ورشيد أفندي الدنا، وعبد الرحمن باشا بيضون، وفائق بك غرغور، والكونت دي طرازي، وسليم أفندي مسديه.

وبعض طالبات مدرسة زهرة الإحسان الأرثوذكسية كلهن بالألبسة البيضاء وبأياديهن الرياحين والأزهار وعلى صدر كل منهن شارة تمثل الراية الألمانية، ثم تقدم ابنتان واحدة من تلميذات المكتب الإعدادي، وأخرى من تلميذات مدرسة زهرة الإحسان، وقدمتا لجلالتها طاقتي أزهار، وبعد أن أظهر جلالتهما ارتياحهما إلى ما شاهدا من حسن الاستقبال ركبا العربة، ودخلا المدينة بمن معهما من الوزراء والأمراء فإذا هي ضاحكة بزينتها النفيسة، والرايات العثمانية والألمانية في مخافقها تميل ميلة واحدة تحكي عما في النفوس من وحدة الميل وفي قلبها قوسا نصر بديعا الاتقان نصبتهما البلدية بعناية حضرة مهندسها البارع رفعتلو يوسف أفندي افتيموس الواحد منها عند مدخل المدينة تجاه الثكنة الهمايونية، وبه لوحان كتب على أحدهما «فليعش السلطان عبد الحميد خان الغازي» وعلى الثاني «فليعش الإمبراطور غليوم» والقوس الثاني عند مدخل الرحبة المعروفة بساحة البرج من الناحية الغربية مغشى بالأزهار والرياحين في صدره الشعار الألماني. أما جلالتهما، فلبثا يسيران في موكب عظيم ومئات من العربات تقل الوزراء والأمراء وعساكر الالاي الزحاف العثماني حاملين البنادق، ومن ورائهم ألوف من الناس لا يقل عددهم عن مئة ألف نسمة، ولما وصلا إلى منتصف الطريق شاهدا هنالك قبة نصبها حضرة الحاخام يوسف بن سنيور قد ازدانت بالرياحين والرايات العثمانية والألمانية وتيجان التوراة وستارات الهياكل، ولما بلغا مستشفى القديس يوحنا البروسيوي بحاشيتهما الكريمة، وفيها القس فريدس الألماني استقبلهما حضرة أطباء المستشفى الدكاترة بوست، وكبس، وكريهم، وأدمس، ومور، وويستر، وحضرة أعضاء المستشفى استقبالاً عظيماً كريماً، فتناولا

المرطبات، ثم تقدمت رئيسة المستشفى السيدة لويزا برنير، وخاطبت جلالته قائلة: إنني كنت آسفة مما كان قد بلغني من عدم سنوح الفرصة لجلالتكم لزيارة المستشفى أما الآن، وقد سنحت تلك الفرصة، وتمت الزيارة الكريمة، فقد تبدل أسفي سروراً. فأجابها جلالته قائلاً: إن لي من مجيئي إلى هنا غرضين أولهما زيارة المستشفى، والغرض الثاني عيادة الدكتور الذي اعتنيتم به اعتناءً عظيماً «والطبيب الذي يريده جلالته هو الطبيب الذي كان في حاشيته الكريمة وقد أصيبت رجله بصدمةٍ على درجة لإحدى مركبات القطار، فكسرت».

وبعد أن تكلم جلالته مع الراهبات اللائي يخدمن مرضى المستشفى، ولاطفهنّ صعد بحاشيته الكريمة يبغي عيادة الطبيب، فلاطفه كثيراً، وما برحه إلاّ وقد أتحفه بمجلة (ألبوم) جلها من البرونز على أحد جانبيه رسم جلالته وعلى الجانب الآخر رسم الكنيسة التي جرى تدشينها في القدس، وهذه المجلة هي واحدة من المجلات التي أعدها جلالته هدية تذكاراً لفرسان القديس يوحنا، ثم أشرع جلالته يطوف في المستشفى مظهراً ارتياحه ومسرته، وكان يتأمل الرسوم المعلقة على الجدران وإذ استقر المجلس بجلالته في ردهة الاستقبال قدمت له السيدة لويزا المشار إليها بعضاً من أثمار الرمان فتلطف بقبولها مسروراً من طيب نمائها، وقال: حبذا أن توكل هذه، الفاكهة: فأجابته نعم إذا كانت ناضجة.

ثم تقدمت لجلالته هذه السيدة مجلة (ألبوم) كتب فيها أسماء عظماء الزائرين للمستشفى، فكان أول اسم، البرنس فردريك شارل ابن عم أبيه إذ زار المستشفى سنة ١٨٨٣، وسألته عما إذا كان يريد أن يتلطف بكتب اسمه فيها، فاستجاب. سألها قائلاً: ولكن للسيدات

حق التقدم يريد بذلك جلالة الإمبراطورة، فكتبت اسمها، ثم كتب هو اسمه بعدها، ثم قدمت المرطبات ومعها شيء من الحلوى، فتناول جلالته بعضاً منها، وقد سألت السيدة لويزا جلالتهما أن يتنازلا، فيذهبا إلى المدرسة الكلية، فاعتذر الكونت مرياح بقصر الوقت عن إمكان ذلك، فقال جلالته: حينئذٍ أنا أذهب للثكنة العسكرية، والإمبراطورة إلى مدرسة البنات البروسيوية، وقد أهدت الإمبراطورة إلى الرئيسة رسمها الكريم يحيط به إطار من فوقه تاج، وعلى الرسم كتبت بيدها عبارة الإهداء، ووعدتها بأنها ستبعث إليها برسم العائلة الملكية، وقال لها الإمبراطور عند الوداع: عسى أن يزورك ابني فيما بعد. ولما اهتم صاحبا الجلالة أن يبرحا المستشفى وقف حضرة الأطباء في التلامذة إلى جهة، وأعضاء لجنة المستشفى، والراهبات برئيستهن إلى الجهة الأخرى، فقدمت الرئيسة أعضاء اللجنة والراهبات إلى الإمبراطورة، وقدم القس فريدس الأطباء للإمبراطور.

وكانت الرئيسة قد استمنحت جلالته مداليا للخواجة خليل سعادة وكيل نفقات المستشفى جزاء أمانته في خدمته مدة ست وعشرين سنة، ومداليا للخواجة مارك حاجب المستشفى، فاستجاب سؤالها، ومنح كلٍّ[1] منهما مداليا من ذهب ثم استأنفا المسير، ولما بلغا برجوعهما قبة اليهود المشار إليها تقدم حضرة الحاخام حاملاً التوراة وهو بألبسته الرسمية، وتبعه أعضاء الجمعية المعروفة بجمعية (مسكاب لدّاخ)، وصلى الصلاة المخصوصة بالملوك، فأظهر جلالته شكره وحيّاه مراراً، وظل سائراً بموكبه العظيم حتى بلع

(١) كذا والأصح كلاً.

مدرسة الأيتام البروسيوية، فعرجت جلالتها عليها لزيارة الراهبات، وكان الراهبات من وراء الرتاج مجتمعات، ومدخل المدرسة مزيناً بأغصان من الأرز والنخل، وغرف المدرسة بالعوسج، والرايات الألمانية في كل من الغرف، ومن فوق الرتاج الشعار الألماني، وعلى الرتاج نفسه قد كتب الحرفان الأولان من اسمي جلالتها، وعلى الباب الداخلي الحرف الأول من اسم جلالته وعبارة معربها (الرب يباركك بدخولك إلى صهيون وخروجك منها)، وكتب على آخر أيضاً ما معريه (يبارك الله عائلة هوهنزولرن) وقد رحبت بجلالتها تلميذات المدرسة جميعهن منحنيات لديها ترحيباً كبيراً، وبعد أن تبوأت المقعد الذي أعدّ لجلالتها وهي مسرورة من احتفاء تلك التلميذات بها أخذ يتقدم إليها تلاميذ المدرسة وتلميذاتها زوجين زوجين ذكوراً وإناثاً كل فئة على حدتها من الأيتام ومن الداخليين يرفعون إليها الهدايا مما يصنع في المدرسة الإناث، يرفعنه باسم كريمات جلالتها، والذكور باسم أنجالها الكرام، ثم زارت جلالتها معبد المدرسة، وخرجت منه إلى فسحة داخل المدرسة نصبت بها قبة لجلوسها بغاية من الإتقان، وعندئذ تقدمت لدى جلالتها الآنسة الأديبة لنده تويني كريمة حضرة سعادتلو اسكندر بك تويني قبل غيرها بما لها من حق الأقدمية في المدرسة، ورفعت لجلالتها باقة من الزهر متقنة التنضيد بهية الرونق، وكان تلميذات المدرسة ينثرن وهما فئتان متباينتان اليتيمات والداخليات على أقدام جلالتها الأزهار عند مرورها ناشدات أناشيد الدعاء، أما دعاء اليتيمات فلجلالتها وأما دعا الداخليات فلجلالته.

وقد تنازلت جلالتها فكلمت إحداهنّ الآنسة الأديبة نلي أبكاريورس باللغة الإنكليزية ثم بالإفرنسية، ثم بالألمانية، فأعجبها ما

رأته فيها من ذكاء جنان وطلاقة لسان، وأثنت على المدرسة كثيراً، وقد رفع لجلالتها جناب الأديب رزق أفندي حداد أستاذ اللغة العربية في هذه المدرسة قصيدة حسناء فأثنت عليه.

ثم دخلت محل الاستقبال، وتناولت المرطبات، وتقدم لجلالتها حينئذٍ جناب الفاضلين الدكتور يوحنا ورتبات، طبيب المدرسة، والمستر ارني أستاذ الترتيل، وما لبثت أن برحت ذلك المحل، وجعلت تطوف غرف المدرسة، وكان التلميذات قد دخلتها صفوفاً، وكانت تخاطب المعلمات بلغات مختلفة سائلة عن بعض الشؤون، ولما برحت المدرسة أبدت أسفها من عدم تمكن جلالة الإمبراطور من زيارة تلك المدرسة، وتمنت كل خير للراهبات، وقد كررت هذه التمني عند شخوصها إلى دمشق، ثم عند مزايلتها ببيروت وجلالتهما عائدان إلى ألمانيا.

وأما الذين كانوا بمعية جلالتها في تلك الزيارة فهم حضرة المشير كمبفنر باشا، والكونت مرباخ، والكونتس كريستوف، والقس دريانـدر، وقد أهدت جلالتها كلاً من رئيستي المدرسة الفاضلتين لويزا قيصر رئيسة الداخليات، وصوفيا كريفر رئيسة الأيتام رسم العائلة الإمبراطورية الكريمة وعليه عبارة الإهداء بخط جلالتها، وأتحفت التلميذات اللائي رفعن إليها هدايا من الأزهار وغيرها بحلة من الذهب مرصعة بالحجارة الكريمة ترصيعاً يمثل الحرفين الأولين من اسم جلالتها الكريم نذكر منهن الآنستين الأديبتين نني كريمة حضرة الدكتور شرودر قنصل ألمانيا في بيروت، ولنده كريمة حضرة سعادتلو اسكندر بك تويني، وكذلك أتحفت التلامذة بحلة من ذهب، ثم خرجت مشيعة بالإجلال والتعظيم وهتاف الدعاء.

أما جلالته، فسار تواً إلى الثكنة الهمايونية، فأطلقت المدافع

ترحيباً، وأخذت سلامه العساكر الظافرة، وبعد أن شرب المرطبات أجريت في حضرة جلالته في البهرة الخارجية الكبرى تمرينات عسكرية استغرقت من الوقت نصف ساعة، وقد أخذ جلالته اسم الطابور مثنياً على ضباطه وجميع الأمراء العسكريين، وبعد ذلك ركب العربة، وإلى جانبه حضرة المشير الخطير دولتلو شاكر باشا، فسارت بهما العربة في موكب عظيم إلى المحلة المعروفة بالحرش حيث وافته جلالة الإمبراطورة بعربتها وإلى جانبها أحد الوزراء الألمان، فاستقبلهما حضرة رئيس البلدية، وبعد أن قدمت لهما المرطبات، وطافا بالحديقة متنزهين زمناً يسيراً عادا على عربة واحدة في الموكب نفسه مارين أمام سراي الحكومة، ثم ذهبا إلى اليخت وذلك بطريق (المدور)، وهي غير الطريق التي خرجا منها أولاً وعاد في وسط ألوف الناس يشرأبون[1] لمشاهدة طلعتهما البهية هاتفين بالدعاء لجلالتهما ولعظمة المتبوع الأعظم أما الزينة في تلك الليلة، فحدث عنها ولا حرج، وقد امتازت دور الحكومة السنية ملكية وعسكرية بزينتها التي كانت غاية في الإتقان، ولا سيما الزينة التي أقامتها البلدية، فإنها كانت موضوعاً للثناء على حضرة الفاضل قباني زاده سعادتلو عبد القادر أفندي رئيس البلدية وعلى حضرات أعضائها الكرام، ومهندسها المشار إليه، وأما الزينات في لبنان، فقد كانت الممتازة منها في عاليه، وبرمانا، وبيت مري، والقاطع، وجبل الكنيسة، وجميع المشارف المشرفة على ثغر بيروت، ولا سيما سراي الحكومة اللبنانية في بعبدا، ودار حضرة ذي الدولة نعوم باشا متصرف لبنان المعظم.

---

(١) كذا بالأصل.

الإمبراطور في بيروت ذاهباً إلى دمشق

في صباح يوم الاثنين سابع تشرين الثاني أعلن جلالتهما ميلهما إلى الخروج من يختهما «هوهنزولرن» الراسي في مرفأ الثغر إلى البر ابتغاء التوجه إلى دمشق الشام، وكان ذلك الساعة الثامنة من صباح ذلك اليوم، فأطلقت المدافع من البارجتين الهمايونتين «أورخانية» و«آثار توفيق»، ومن الموقع العسكري، فخرج ذو الجلالة، وذات الجلالة بالحاشية الكريمة على زورقهما، وكان على الرصيف عند مطلعهما من البحر تحت القبة الحمراء التي أعدت لجلالتهما حضرة ملاذ الولاية الجليلة، وأركانها العظام، والأمراء بالبزات الرسمية واقفين على الأقدام، والعساكر الشاهانية، ورجال الشرطة على سروات الطريق مصطفة صفاً محكماً، وتلاميذ المدرسة الألمانية، وتلميذاتها بالثياب البيضاء، وعلى صدر كل منهنّ عقدة من الحرير تحاكي بألوانها الرايات الألمانية، والجالية الألمانية على الرصيف تلوح بأيديهم الرايات الألمانية، وكانت الجنود الشاهانية واقفة على ظهر السفينة العثمانية »إسماعيل« وقفة الإجلال والتكريم، فلما بلغ الزورق الكريم الرصيف خرج منه صاحبا الجلالة بحاشيتهما، فاستقبلهما من كانوا بانتظارهما تحت القبة المذكورة من رؤوس القوم، وصدحت الموسيقى الشاهانية بألحانها الشجية، وأخذت سلامهما الجنود الظافرة، ثم رفعت لهما باقات الأزهار أيدٍ لطيفة كريمة، وتقدمت إليهما حضرة السيدتين الفاضلتين رئيسة جمعية نهضة النساء، ومؤسسة الجمعية في خمس من السيدات من أعضاء الجمعية، فرفع حينئذٍ إلى جلالتها بإتقان من الزهر المصنوع باليد وباقة من الزهر الطبيعي رفعتها السيدة قرينة الخواجا البر

بسترس، أما الباقتان من الزهر المصنوع باليد فمشدودتان بقدتين من الحرير ألوانهما كألوان الراية الألمانية وعلى الباقة منهما حمامة مصورة من زهر مصنوع باليد، والباقتان يربط بينهما قدة كتب عليها اسم مؤسسة الجمعية، واسم رئيستها، ثم ركب ذو الجلالة المركبة، وسار وإلى يساره الإمبراطورة بيدها الباقة من الزهر، وسارا في موكب حافل، فجرى أمامهما كوكبة من فوارس رجال الشرطة، ثم فوارس الجنود، ثم مركبة حضرة ملاذ الولاية العالي وإلى يساره على المركبة ذو السعادة عصمت بك قومندان الموقع، وعقبها مركبة أخرى لاثنين من الحرس الإمبراطوري واقفين عليها وهما مولِّيان مركبة صاحب الجلالة السائرة خلفهما وجهيهما، ومن وراء المركبة الإمبراطورية مركبة لاثنين من آلاي العسكر الزحاف، ثم مركبات أخرى للحاشية الكريمة والمصاحبين ذلك ما عدا العساكر الشاهانية، وسائر الناس على الطريق تحيي جلالتهما هاتفة بالدعاء لهما وهما يحييان القوم بتحية ذات أنس وبشاشة حتى بلغا محطة السكة الحديدية، فقدمت هنالك لجلالته أعضاء البلدية، ثم ودع جلالتهما كرام القوم مصافحة، وركبا بعدئذ القطار المعدَّ لهما، المفروشة مركباته بالمفروشات النفيسة، وعلى جوانبها الأعلام العثمانية والألمانية، وعلى جانبي إحدى المركبات الشعار الإمبراطوري، ثم سار القطار حتى بلغ محطة الحدث حيث أخذت سلام جلالتهما جماعة من الجند جعلت في المحطة، وكان من مأموري الحكومة اللبنانية رفعتلو الأمير حارس شهاب مدير الساحل، وأحد ضباط الشرطة اللبنانية الشيخ ناصيف عماد، وكان في محطة بعبدا رفعتلو الأمير سعد الدين شهاب أحد الضباط اللبنانيين، وجماعة من العساكر اللبنانية، وضباطها، فأخذت سلام

جلالتهما عند مرور القطار، وكان في محطة جمهور رفعتلو نعمان أغا نصير، وفي محطة عاريا والسرب هناك الضابط الياس آغا أبو شقرا، وكانت كل محطة مزدانة بالرايات، وجماهير الناس فيها كالبناء المرصوص يرقبون وصول جلالتهما حتى إذا ما وصلا حيُّوهما هاتفين دعاءً وترحيباً أما القطار، فلم يقف في واحدة منها حتى بلغ محطة عالية.

❖ ❖ ❖

الإمبراطور في محطة عالية ذاهباً إلى دمشق

بلغ القطار الخاص المقل جلالتهما محطة عالية[1] فإذا هي ذات منظر بهيج تقرُّ به العيون فإن حضرة صاحب الدولة نعوم باشا متصرف لبنان المعظم شكَّل تحت رياسته لجنة الاستقبال[2]، وأعدَّ هناك زينة آية في الترتيب والإتقان حتى أنك كنت ترى عند تلك المحطة ما هو من أبهى المحاسن الطبيعية في لبنان، أجمة من صنع اليد من أشجار الأرز، والصنوبر، والسنديان، والدفلى، والسرو إلى غير ذلك، علو الشجرة من مترين إلى أربعة أمتار جيء بها من

---

(١) هي إحدى قرى مديرية الغرب الشمالي من قضاء الشوف من أعمال جبل لبنان وفيها مركز المديرية، وقد اتخذها بعض المثرين من أهالي بيروت مصيفاً لهم لقربها إليها وطيب هوائها، وشادوا فيها من القصور ما جعلها في مصاف القصبات الكبيرة، وأكثر أهاليها من الدروز.

(٢) إن لجنة الاستقبال مؤلفة من كل من حضرة صاحبي السعادة الأمير مصطفى أرسلان قائمقام قضاء الشوف، واسكندر بك تويني مدير الأمور الأجنبية، وعزتلو الأمير قبلان بللمع (أبي اللمع) قائمقام قضاء المتن، وكل من رفعتلو خليل أفندي الشدياق، والبرتو أفندي مهندسي المتصرفية.

أماكن مختلفة، وركزت على نسق ذي شكل هندسي لطيف في أرض فرشت بالرمل الأبيض، وضرب في وسط تلك الأجمة سرادق كبير كلَّل بالأزهار والرياحين وجلَّل بالرايات العثمانية والألمانية، وفرش بالطنافس النفيسة، وجعل في السرادق مائدة عليها من المرطبات والحلويات والأثمار صنوف وألوان منضدة تنضيداً متقناً يتخللها باقات من الزهر تنبعث منها الروائح اللطيفة، وضرب حول السرادق مضارب أربعة جعلت فوقها الرايات العثمانية، والرايات الألمانية، وكان من الرايات من النوعين ما يخفق فوق رؤوس الأشجار المركوزة من أشجار تلك الأجمة.

وكانت العساكر اللبنانية مصطفة على الطريق من ظاهر عاليه حتى المحطة منها الفرسان أولاً، ثم المشاة وعليهم ضباطهم كل من البكباشي رفعتلو سلمان بك شقير، والقولوغاسية سعيد بك عماد، وأحمد أفندي العريس، وفنجنسيو أفندي قولوغاسي الموسيقى اللبنانية، واليزباشية حسن آغا أبو شقرا، وحبيب آغا شمعون، وملحم أفندي الخوري، والملازمان محمود أفندي محمد، وسجعان أفندي عارج، وحامل البيرق الملازم ملحم آغا نكد.

وكان حضرة ملاذ المتصرفية الجليلة دولتلو نعوم باشا، ومعه حضرة ذي السعادة الأمير مصطفى أرسلان قائمقام الشوف، حضرة سعادتلو اسكندر بك تويني مدير الأمور الأجنبية، وعزتلو ملحم بك أبو شقر أميرالاي العساكر اللبنانية، في تلك المحطة يرقبون إشراق الطلعة الإمبراطورية وفيض أنوارها في تلك الأجمة الموعودة بوطوء الأقدام الكريمة لها، فلما كانت الساعة التاسعة إفرنجية قبل الظهر أقبل على تلك المحطة قطار يقل حضرة المشيرين دولتلو شاكر باشا، وكمنفنر باشا، وحضرة عطوفتلو الفريق

عبد الله باشا، وغيرهم من الأركان، والياروان الكرام، فأخذت الجنود المصطفة سلامهم، واستقبلهم حضرة ملاذ المتصرفية الجليلة، فمكثوا ريثما تناولوا شيئاً مما قدم لهم من حلوى ومرطبات، ثم عادوا إلى المسير بقطارهم، ولما كانت الساعة ٥٠ دقيقة من بعد التاسعة ورد على المحطة قطار آخر يحمل الحاشية الكريمة والتابعين، فاستقبلوا بما لاق بهم من التكريم، وقدمت لهم الحلويات والمرطبات، فأخذ أحد المصورين الألمانيين من أتباع جلالته من ركاب ذلك القطار رسم ملجاء المتصرفية الجليلة، وكبار المأمورين الحافلين به، وياوران دولته، وهم كل من جناب أنطون أفندي ملحمه، وسعيد بك حمادي، وسعيد أفندي خطار البستاني، ورسوم الجماهير المحتشدة حول المحطة والمضارب، وفي جملتهم جماعة من أشياخ العقل من أشياخ الطائفة الدرزية، ثم سار بهم القطار وغادر تلك المحطة تختال تيهاً وعجباً بحلتها البديعة من تلك الزينة وتلك الأجمة بحفيف ورق الأشجار كأنها تحدث نفسها فيما سينالها من شرف إشراق الأنوار الإمبراطورية في أرجائها ومن بها من القوم يرقبون ورود القطار العتيد، فلما كانت الساعة نصفاً من بعد العاشرة أقبل القطار الإمبراطوري يقل جلالتهما، وبعض رجال الحاشية، وفي جملتهم حضرة الموسيو شرودر، يصحبه ترجمان القنصلية جناب الوجيه جرجي أفندي ديمتري سرسق، وكان جلالته في أثناء ذلك يذاكر القنصل المشار إليه في أمور شتى، فمر القطار أمام فرقة الفرسان الواقعة عند الطريق المؤدي إلى المحطة، فأخذت الفرسان سلام ذي الجلالة، وهكذا المشاة من بعدهم إذ بلغهم القطار والقائد على تلك الجنود أميرالايهم الباسل عزتلو ملحم بك أبو شقرا، وأخذت الموسيقى اللبنانية تصدح باللحنين الحميدي

والألماني، والناس يهتفون بالدعاء، ولما وقف القطار بالعظيمين في المحطة خفّ لاستقبالهما حضرة ذي الدولة نعوم باشا، وحضرة السيدة قرينته المصونة، ومعهما كل من حضرة صاحبي السعادة الأمير مصطفى أرسلان، واسكندر بك تويني، فولى جلالته ذا الدولة التفاتاً كريماً، وتنازل، فذكر قرينته بزيارة المغفور له ابيه فردريك الثالث لبنان منذ ٢٩ سنة، ونزوله ضيفاً على أبيها المرحوم فرنقو باشا، وأنه بات عنده ليلة في بيت الدين، وقد بلغ في تنازله وتلطفه إلى حد أنه لما مثل بين يديه نجلها الأديب سعيد بك قال له: أبي زار جدك من عهد بعيد، واليوم أنا أزور والدك، فعسى أن تنمو في خدمة الدولة العثمانية العلية، وتتدرج في مناصبها حتى تصير متصرفاً، ويأتي ولي عهدي فيزورك، وسأله جلالته عن المدرسة التي يتلقى فيها العلوم، فأجاب: لا أدرس في مدرسة وإنما أدرس في بيتي على أستاذي. قال جلالته، وفي أي الكتب تدرس، فذكر له اسم الكتاب الذي يتلقى الدرس فيه وهو لأحد المشهورين. قال جلالته: إذاً أنت عالم، فأجابه نعم يا ذا الجلالة، فضحك جلالته عندئذ كثيراً، ولما خرج صاحبا الجلالة من القطار سارا إلى السرادق على طنافس مدت على الطريق من القطار إليه، وتناولا مما على المائدة شيئاً من نبيذ الشانبانيا.

وقد برز لدى جلالته أمام المضارب أربعة رجال بملابس من أنفس الملابس الشرقية القديمة مزركشة بالقصب زركشة لطيفة، وفي يمين كل منهم سيفه، وفي اليسار ترسه، والأسياف، والأتراس من أجود ما يكون، وشرعوا يتثاقفون لعباً بالسيف والترس على صوت الطبل والمزمار مثاقفة ارتاحت نفس جلالتهما إلى مشاهدتها، وهم المشايخ الحاج محمد عبد الله، ومحمد عبد الغني العيتاني،

ومحمد الشدياق، ومحمد الحنون، وقد أخذ أحد مصوري الموكب الإمبراطوري رسمهم مع رسم ثلاثين شيخاً من أشياخ الدروز، وبعد أن مكثا خمساً وعشرين دقيقة في تلك المحطة نال فيها الوفد الكريم المعدّ لاستقبال جلالتهما رعاية والتفاتاً، وودعا الحاضرين بعبارات تنعش بلطفها تلك الأفئدة التي أثقلتها هيبة ذلك المجلس ووقاره عادا إلى المسير بالقطار الذي ما لبث سائراً يمر بالمحطات رادّاً التحية على الشرذمات من الجند التي كانت في كل محطة واحدة منها وعليها ضابطها، ولم يقف حتى بلغ محطة بحمدون حيث كان مدير الناحية رفعتلو نجيب بك السعد، والملازم مخايل آغا جرجوره في جمهور غفير من أهل المديرية ينتظرون مرور جلالته بالمحطة للقيام بأداء واجب الإجلال والتعظيم، فوقف جلالته بضع دقائق اقتبل فيها السلام، وشاهد الجمهور المحتفي بمرور جلالته، ثم سار إلى صوفر، فالمريجات، ووقف في كل محطة منهما بضع دقائق أيضاً يقتبل تحية الجماهير المحتشدة للاحتفاء بجلالته، وهتافهم بالدعاء له، وكان في المحطة الأولى منهما حضرة عزتلو الأمير قبلان أبي اللمع قائمقام قضاء المتن ومعه بعض مديري المتن، وهم كل من اصحاب الرفعة الأمير نصر مراد والشيخ يوسف عيد حاتم وحبيب أفندي أبو فاضل وفي المحطة الثانية كل من جناب عزتلو نجيب أفندي البستاني رئيس محكمة قضاء المتن، والأمير خليل مصطفى مدير بسكنتا سابقاً، ورفعتلو البكباشي اسكندر بك الطرابلسي، ورفعتلو الشيخ منصور الخازن محافظاً على السرب، وبين المحطتين كل من جناب أصحاب الرفعة عجاج بك عماد، وسعيد بك نخلة، والشيخ شبلي العيد مديري العرقوب الجنوبي والعرقوب الأعلى والعرقوب الشمالي في جمهور غفير من أهل

المديريات، وكانت العساكر تأخذ سلام جلالته في كل محطة، وكانت تؤخذ رسوم تلك الجماهير كلما وقف القطار عندها، ولما بلغ جلالته محطة جديتا حيث كان جناب عزتلو محمود أفندي الغزي قائمقام البقاع، وحيث نصب له قوس نصر كلِّل بالرياحين والأزهار وجلل بالرايات أخذت سلامه كوكبة من الفرسان يبلغ عددها أربعة وأربعين فارساً وعليها ضابطان، وجميع خيلها ذات لون واحد أحمر، وحيته الجماهير بهتاف دعاء، ولما وصل محطة سعد نايل أخذت سلامه كوكبة من المشاة وعليها ضابطها، وكانت المحطة منصوباً عليها قوس مثل قوس المحطة السابقة، وكانت هناك اثنتا عشرة فتاة بثياب بيضاء، وبأيديهن باقات من الزهر، فسرَّ جلالته من هذا المشهد البهي.

❖ ❖ ❖

الإمبراطور في محطة معلقة[1] زحلة ذاهباً إلى دمشق

كان يوم الاثنين يوماً مشهوداً وصباحاً ميموناً تقاطر الناس فيه باكراً زرافات، ووحداناً من زحلة إلى أنحاء المعلقة قرب محطة سكة بيروت ودمشق الحديدية، فكنت ترى المتقاطرين يزدحمون على طريق العربات في جانبيها بين راكبي عربات، وخيول، ومشاة من جميع الطبقات كباراً وصغاراً في مشهد بديع يأخذ بمجامع القلوب التي كانت متجهة إلى مركز المحطة وبقيت الجموع متوالياً حشدها إلى تلك الجهة بياض ذلك النهار فضلاً عمن اتخذوا بعض الربى كتل شيحا وغيره مرصداً لذلك المنظر البهيج.

---

(١) هي قصبة قضاء البقاع واقعة إلى الشرق من زحلة، ومبانيها متصلة بهذه المدينة.

وقد أعدَّت حكومة زحلة في الأحراش التابعة قضاءها على الخط الحديدي زينة باهية ستة أقواس نصر من الرياحين على كل جانب ثلاثة وقد كتب على الجانب الواحد بالعربية «فليحيى سلطاننا الغازي عبد الحميد خان» وعلى الجانب الثاني بالألمانية «فليحيى إمبراطور وإمبراطورة ألمانيا» وصفَّت الرايات العثمانية والألمانية فرادى، وأزواجاً، والأهلة مزدانة بها تلك الأقواس، وكان حوش الأمراء حوالي الزينة مزداناً جميعه بالأعلام أيضاً تحركها الرياح، فتصفق طرباً وحبوراً، وقد أقيم في تلك البقعة فرقة من الجند اللبناني برئاسة ضابط القضاء خليل أفندي شمعه، وكان رجال بوليس البلدية منبثين منعاً للناس من الدنو من الطريق مما دل على اهتمام عزة القائمقام الياس بك الباشا الذي بذل العناية في إعداد هذه المعدات وأعضاء المجلس البلدي.

أما في محطة المعلقة فقد أعدَّت إدارة السكة الحديدية زينة بديعة أيضاً من أقواس الرياحين تغشاها أعلام الدولتين وهنالك قبة بديعة أُقيمت على شكل قوس نصر تحاكي السماء بلونها، وفيها نجوم تحاكي نجومها، والأهلة العثمانية، والأعلام الألمانية تمثل دراريها ونيريها كل ذلك على طرز جميل وإتقان غريب، وكنت ترى الأعلام تخفق على البيوت هنالك كأنها ترف بأجنحتها حنيناً إلى ذلك المشهد، وعلى سراي الحكومة فيها أربعة أعلام على زواياها الأربع.

وإلى شرقي المحطة أقيم ثلاثة عشر مضرباً، وفيها مضرب كبير بديع الصنع، وقد وضعت هذه المضارب بهندام في فسحة فيحاء قد ازدانت بفاخر الرياش والأعلام الألمانية تخفق فوق رؤوسها معدَّة

لنزول جلالتهما وبطانتهما الخاصة، وكان على جهتيها نحو عشرين من الجند والفرسان للمحافظة، وعلى مقدمة الفسحة، وجانبيها أيضاً جنود مشاة، وفرسان مع الموسيقى العسكرية، وجميعهم ينتظرون قدوم الزائرين الكريمين لأخذ سلامهما، والاحتفاء بهما.

وكانت الجموع منتظمة على سطوح البيوت وأمامها ألوفاً، وفوق رؤوسهم الأعلام اللطيفة للدولتين العثمانية والألمانية تتلألأ بألوانها، وكان هلال السماء متجهاً إلى تلك البقعة يشارك أهلة الأرض بالسرور، فأخذ أحد المصورين الألمانيين رسم ذلك المشهد فوتوغرافياً، ونحو الساعة الحادية عشرة قبل ظهر ذلك اليوم قدم قطار الشام يقل حضرة دولتلو ناظم باشا، والقومندان، وأمراء العسكرية، والضباط، وجميعهم بالألبسة الرسمية، فحيتهم الموسيقى العسكرية بألحانها المطربة، وأخذت الجنود سلامهم، وما وقف بهم القطار حتى جاءوا جهة المضارب يتفقدون ما أرصد هنالك من المعدات متأثرين حركات الجنود وترتيبهم بدقة، وبعد ذلك جاء قطار بيروت أيضاً يقل الحرس العثماني الخاص، ثم قطار يقل حرس جلالته، فنزلوا بالمضارب، وحواليها، ولما كانت الساعة الواحدة بعد الظهر والآمال تتلع أعناقها إتلاع أعناق الأهلين لاستطلاع المشهد الملوكي، وإذا بالقطار يصفر مبشراً بقدوم جلالتهما، وهو مؤلف من خمس عربيات مزدانة بالرياش الثمينة قد نصب عليها العلم الألماني، فعند مروره في الأحواش حيث أقامت حكومة زحلة زينة كما سبق كان هنالك عزة قائمقام القضاء الموما إليه، وأعضاء محكمته، والمجلس البلدي، وبعض الوجوه، والأعيان، فضجوا بأصوات الدعاء، فحياهم جلالتهما بالبشاشة، ومزيد الرعاية، وأخذ الضباط،

والجند، وبوليسا البلدية سلامهما، وظل القطار سائراً إلى محطة المعلقة، فوقف أمام المضارب، وهنالك كان دولتلو ناظم باشا، والمشير، وأمراء العسكرية، والجند، وحكومتا زحلة والمعلقة، منتظمين انتظام الحجارة الكريمة على بساط تلك الفسحة المزدانة، فأخذوا سلام جلالتهما، وما همَّا بالنزول مع بطانتهما الكريمة والدخول إلى المضرب حتى قُدِّمت لجلالتها الآنسة الذكية لوريس كريمة جناب الوجيه نجيب أفندي سرسق وهي ابنة خمس سنوات، وعليها ثياب بالألوان الألمانية، فقدمت لحضرة الإمبراطورة طاقة أزهار لطيفة الصنع أنيقة، وأنشدتها ثمانية أشعار بالألمانية، أربعة منها ترحيباً بجلالتها، وأربعة تأهيلاً بجلالته، فتبسم كلاهما، وسرا كثيراً من هذه الهدية، فتناولتها جلالتها، وقرأت الأشعار ثانية لأنها كانت مكتوبة على رباط الأزهار بالألمانية، فازداد سرورها وحبت جلالتها إذ ذاك الآنسة لوريس بنوط من ذهب يمثل شعار دولة ألمانيا عليه رسم التاج والنسر ضمن إطار نفيس مرصع بالحجارة الكريمة في حقة متقنة، ثم ودعتا جلالتهما، وخرجتا شاكرتين.

وبعد هنيهة ركب حضرة ناظم باشا، والمشير، والأمراء العسكرية قطاراً خاصاً، وساروا إلى الشام مشيعين بالإكرام، ثم عقبة قطار الحرس الإمبراطوري الخاص.

وكان الشعب متهللاً لذاك المشهد الكبير سحابة وجودهما هنالك، وبعد نحو ثلاثة أرباع الساعة آذن صوت القطار بالرحيل على جناح السلامة، فكان المشهد عظيماً كالأول، ولكن القلوب هنا مشيِّعة، وهنالك كانت مستقبلة، وكان الجميع يودون طول مكثهما، فسارا على جناح البخار والسلامة في موكب حافل قاصدين دمشق

الشام، وبأثناء وجود جلالته في معلقة زحلة قدم لجلالته خطاب[1] من ناظم عقد هذا الكتاب.

❖ ❖ ❖

الإمبراطور في دمشق

ما غربت شمس يوم الاثنين سابع تشرين الثاني إلا وأنوار الطلعة الإمبراطورية قد حلّت محلها فملأت جو دمشق[2] المنبعثة

---

(١) هذه صورة الخطاب:
إنني أقدر الموقف الذي أذن لي به حلم جلالتكم حق قدره، وحسبي أن أعرف أنني ماثل لدى مليك عظيم لم تزده مكانته، ومكانة شعوبه بين ملوك أوروبا العظماء، وشعوبها إلا حرصاً على توطيد أركان السلم العامة ومراعاة حقوق الأمم لا سيما الحقوق العثمانية المقدسة التي قد قام من حرص جلالتكم على مراعاتها أدبياً أدلة واضحة أثبتناها على صفحات جرائدنا العثمانية شاكرين.
ولما كنت أحد عبيد السلطنة العظمى المخلصين، وقد حفظت في صدري من آثار تلك الأدلة جميل الذكر وجزيل الشكر رأيت أن أغتنم من وقفتي لدى جلالتكم، وجلالة الإمبراطورة في ديار وطئت أقدامكم الكريمة أرضها لرؤية آثارها، فأكشف لكم الصدور قبل آثار الدهور طالباً إلى الله أن يبقي جلالتكم أعظم ملاذ للإنسانية، وأن يطيل بقاء عظمة متبوعنا السلطان الأعظم الذي قد بلغنا نحن العثمانيين على اختلاف المذاهب في عهده مبلغ الكمال والنجاح، وتمتعنا بجميع ما تطمح إليه نفس المرء من الفلاح.
إبراهيم الأسود

(٢) هي واقعة في طول شرقي ٣٦,٣٠° وعرض شمالي ٣٠,٢٠° وسط غوطة حسنة جداً تسقى بمياه أنهر عديدة هي بردَه ويزيد وتوره وقنوات وبانياس، وما يتفرع منها من السواقي والجداول، أما هواؤها فمعتدل عليل ينفح الأرواح للأشباح، وينعش فؤاد الشجي الملتاح، ومياهها صافية برّاقة تسيل=

= في الجداول على الحصباء كأنها ذوب ماسٍ يتدفق فوق لآلٍ غوالٍ، ولقد لهج بحسنها وبهجتها الشعراء في كل عصرٍ ودورٍ، ومن ألطف ما قيل فيها هذه الأبيات:

دمشق في شوق إليها مبرّح	وإن لجّ واشٍ أو ألح عذولُ
بلاد بها الحصباء در، وتربها	عبير، وأنفاس الشمال شمول
تسلسل لفيها ماؤها وهو مطلقٌ	وصحّ نسيم الروض وهو عليلُ

وهي قديمة العهد في البناء يقربها بعض المؤرخين إلى عهد سام بن نوح، وبعضهم إلى قايين بن آدم، وجلّ ما اتصل بنا تحقيقه من التوراة أنها كانت على عهد إبراهيم بلداً كبيراً، وكانت إذ ذاك عاصمة لملوك الآراميين وفي الجملة أن هاته المدينة العريقة في القدم قد خصّت بجميع أسباب العمارة والنماء حتى أنها تعدُّ المدينة الوحيدة التي لم يداهمها الخراب، ولقد جمعت أسمى مزايا الراحة والرغد، فإن المياه تنساب في شوارعها، ودورها من أفواه سباع نحاسية كحيّات من نور في برك كبحيرات كافور، ومنازلها تكون كالجنات بما غرس في جوانبها من أشجار الليمون وحب الآس، وقد رصّعت أكثر دورها بالمرمر الأبيض، وتزخرفت جدرانها ببدائع أنواع النقش القديم المعروف بالعجمي، ولأهلها كثير من الصناعات اليدوية من قديمة وحديثة مما لا مثيل لها في غيرها من سائر البلاد. فضلاً عما امتازوا به من رقة الجانب، ولين العريكة، ولطف الأخلاق، وحب الغريب، ونزوعهم إلى التآلف والتعاشر، أما عددهم فيبلغ نحو ثلاثمائة ألف أربعون ألف من النصارى واليهود والباقون من المسلمين، وقد نبغ منهم من العلماء الأفاضل، ومن الشعراء الأدباء، ومن ذوي البسالة من طبّق ذكرهم الخافقين. ودمشق هي اليوم قاعدة الولاية السورية، ومركز الفيلق الهمايوني الخامس، ومقام أمير ركب الحج الشريف، ومحط رحال التجارة البرية خصوصاً للحجاز، وبغداد، ودار البطريركية الأنطاكية للروم الأرثوذكس، والروم الكاثوليك، وقد اشتهر فيها من الأبنية العجيبة الجامع الأموي الشريف، وقلعتها الشهيرة، وقد استولى عليها البابليون، والفرس، واليونان، والسلوقيون، والرومان، والعرب، فاتخذوها مقر خلافة إلى حين انقراض الدولة الأموية =

من مركبات القطار الحديدي، فأطلقت المدافع احتفاءً وتكريماً، ثم خرج صاحبا الجلالة من المركبات في محطة البرامكة حيث وقف القطار، وكان قد خف لاستقبالهما حضرة صاحبي الدولة ناظم باشا، وشاكر باشا في جمهور غفير من الوزراء، والأمراء، والرؤساء الروحيين بملابسهم الرسمية، وتلامذة المدارس، ومئات ألوف من خاصة الناس، وعامتها غصَّت بهم الطرق والرحاب الفسيحة، وهم يرقبون قدوم الزائرين العظيمين، فاستقبلهما الوزيران بين ضجيج القوم بالمسرة، وهتافهم بالدعاء، وقدَّم إليهما حضرة ذي الدولة ناظم باشا بعضاً من وجوه القوم، وكرام الملاقين، وامتطى ذو الجلالة جواداً له أشهب، وركبت ذات الجلالة مركبة أربعة أفراس مترادفة زوجين زوجين بجلال ذات صفائح من ذهب خالص عليها الشعار العثماني، وعلى ظهر الردف من الأيسرين رجل، وركب إلى جانبها واحدة من نسوة الشرف، وتبع هذه المركبة مئات من المركبات تقل الحاشية الكريمة، ورؤوس القوم الملاقين، فدخلا المدينة بين هتاف الداعين للحضرة السلطانية العظمى ولجلالتهما، وأصوات الموسيقات الشاهانية الشجية، والمدينة تتلألأ بالمصابيح وأنوار الزينة

= من الشرق وظهور دولة العباسيين، ثم تملكتها ملوك الطوائف إلى أن وقعت في يد الدولة العلية العثمانية على عهد ساكن الجنان السلطان سليم خان سنة ٩٢٣، فرفعت شأنها، ورتعت في رياض الأمن، وتوثقت عرى الاتحاد بين أهاليها، وبالجملة، فإن أهالي هذه المدينة العظيمة مشهود لهم بالفضل، وقد حازوا قصب السبق بالأعمال التي خلدت لهم في بطون التاريخ ذكراً جميلاً، وحسبهم فخراً بما وصفهم به جلالة الإمبراطور غليوم الثاني إذ قال: «تمنيت لو أخذ عن الدمشقيين كيف تستقبل الملوك» وبين هذه المدينة، ومدينة بيروت طريق عربات طوال ١٢٠ كيلو متراً وسكة حديد طولها ١٤٧ كيلو متراً.

كأنها شعلة من نار، أو فيض من نور تلك الطلعة البهية، فبلغا السراي(١) سراي العسكرية المعدة منزلاً لهما، فرفع لجلالتهما هناك

---

(١) إن الدار العسكرية التي أعدت مقاماً لصاحبي الجلالة الإمبراطور والإمبراطورة كانت تختال بحلة من الزينة بديعة من منسوجات وطنية، ومصنوعات كذلك من صناعة الموزاييك (التطعيم) كلها منضدة تنضيداً يرتاح إليها نظر ذي الذوق السليم، وتلك الدار تشتمل على قاعة كبرى للاستقبال، وغرفتين للتزين في داخل الدار إحداهما للإمبراطور، والأخرى للإمبراطورة، وغرفتين للنوم، وغرفة خاصة بالإمبراطورة للاستقبال، أما القاعة الكبرى، فمفروشاتها من مقاعد وكراسي من خشب مطعم وغشاواتها قماش من حرير من منسوجات جبل لبنان النفيسة مراعىً فيها تطبيق الألوان، وعلى جلها وجدرانها طنافس من الطراز القديم ذات قيم كبيرة، والثريات معلقة صنوفاً وألواناً، وكثير من أنواع الأسلحة المعلقة على ألواحها بإتقان وترتيب، ومواضع كثيرة تغشاها شالات ومناديل نفيسة بشكل أطر، وفي وسط القاعة منضدات ذات صدقٍ (لعلها ذات صدف) ولدى الجدار المقابل للباب خزانتان يغشاهما الصدف، ومن فوقها مرآتان ذات صدف أيضاً، والآنية الصينية العتيقة منضَّدة تنضيداً متقناً، وكل غرفة من غرف التزين فيها خزائن كبيرة ذات صدف، ومقاعد، وكراسي مفروشة بالحرير الشامي، وفيها قناوات من الماء للاغتسال بارداً، وحميماً تكتنفها بيوت من خشب مطعم ومصابيح من فضة، ومرآة كبيرة، وأباريق، وأواني من فضة، وعلى الجدران الثلاث، والطنافس النفيسة. وأما غرف النوم، ففيها من سرائر خشب الجوز ذي لمعان بهي، وخزائن كبيرة ذات صدف، ومراء (جمع مرآة) نفيسة، ومصابيح من فضة، والمفروشات من طنافس عجمية، وكانت غرف سيدات الشرف مزينة بزينة تقرب من تلك الزينة، وأبهى من ذلك كله زينة قاعة الاستقبال الخاصة بجلالة الإمبراطورة، فإنها مما يقصر عنه وصف الواصفين، وكذلك كانت قاعة جلالة الإمبراطور، وفيها منضدة للكتابة كبيرة محكمة الصنع والاتقان، وعليها أدوات الكتابة، وفي الجهة الغربية من داخل الدار قاعة طولها ٢٦ ذراعاً، وعرضها ٢٠ ذراعاً=

باقة من الزهر على يد كريمة من المسلمات بالنيابة عن تلميذات المدارس اللواتي قدمهن لجلالها حضرة سعادتلو مدير معارف سورية، وكنّ اثنتي عشرة ابنة من تلميذات المكتب الرشدي، وثلاث من تلميذات مكاتب الروم الأرثوذكس، والبروتستانت، واليهود. وتعطفت جلالتها أيضاً بمكالمة حضرة السيدة الكريمة قرينة عزتلو مخائيل أفندي السيوفي المستتابة لدى جلالتها في القيام بأداء الواجبات عن نساء طائفة الروم الكاثوليك، وقدم لهما حينئذٍ الشاعر الأديب نجيب أفندي هواويني قصيدة حسناء، فأثنيا عليه. أما الحاشية الكريمة، فقد أعد لها منزلاً فندق الخواجا سليم بسراوي. وأما زينة دمشق ليلتئذٍ وصاحبا الجلالة داخلاها، فقد كانت مما يقصر عنه وصف الواصفين، وأعظم من ذلك كله زينة البلدية، والقبتان الكبيرتان اللتان نصبتهما على ممر جلالتهما من الطريق، وقد قدرت المصابيح المتقدة في تلك الليلة بمليون مصباح، وعدد الشموع التي ابتاعتها البلدية بلغ خمسين ألف شمعة، وزد

= وفيها خوان بطولها عليه آنية من الذهب والفضة، وأشياء أخرى نفيسة. وفيها مقاعد، وكراسي بصدف، وعليها غشاوات من الحرير، وفيها مرآة كبيرة، ومصابيح من فضة، وبسقفها عدة من الثريات، أما الغرف الثلاث التي خصّت بحضرة المارشالات من أركان معية جلالته، فقد كانت مفروشة من المفروشات النفيسة كذلك، وبالجملة فإن تلك الدار قد أعدت على وجه أن يطيب بها مقام جلالتهما، وترتاح نفسهما إلى الاستقرار فيها، وفي فناء تلك الدار، ورحباتها علقت ألواح عليها الشعار الألماني، ومن فوقها الأعلام خافقة عثمانية وألمانية، وآلاف من المصابيح، وعليها الأزهار من أنواع مختلفة، وكانت حديقة الدار أشجارها تتلألأ بالمصابيح والشموع. ومجمل القول أن الزينة كانت تسلب الألباب ببهاء رونقها وإحكام تأنقها.

على ذلك ما أوقد من السرج بالزيت. وكانت الرايات منشورة فوق كل منزل وكل طريق، وعلى الأبواب، والنوافذ حتى أن ثمن الذراع من القماش الأحمر الذي تصنع منه الرايات أصبح عشرة أضعاف ما كان قبل، وكثير من بيوت المثرين اتخذ من ذلك القماش الحرير الأحمر بديلاً، وأما الأزهار والرياحين التي تغشى القصور والنوافذ وأقواس النصر، فقل فيها إن دمشق وما بها من قصر شاهق إلى أحقر مبانيها قد استرقت[1] وشاح ما حولها من جنات خضر، وحدائق زهر واتخذته لنفسها ملآة[2] تستتر بها في وقفة المهابة والإجلال ولا تخشى من قولك غلوّاً، وكانت تلك الزينة ليل نهار مدة بقاء جلالتهما في دمشق، ولم تكن الزينة قاصرة على دمشق، بل تناولت القرى المجاورة والضواحي، فإن مباني حضرة صاحب السعادة أحمد باشا شمعة في دمر كانت زينتها لا تقل بهاءً وجمالاً عن زينة داره الرحيبة في دمشق، ولم يفت جلالته تلك الليلة أن أنبأ الحضرة الشاهانية العظمى بوصوله سالماً شاكراً ما جرى له من حسن الحفاوة والإكرام، فورد الجواب من عظمتها يهنئه بوصوله سالماً، وقد كتب جلالته أيضاً إلى الدوق دي باد يقول له:

«إن استقبالي في دمشق كان باهراً مدهشاً وتمنيت لو أخذ عن دمشق كيف تستقبل الملوك».

❖ ❖ ❖

---

(١) استعارت، اقترضت.

(٢) ملاءة.

الإمبراطور في الجامع الأموي الشريف

لما كانت الساعة الثالثة من صباح يوم الثلاثاء ثامن تشرين الثاني بدا من ذي الجلالة ارتياح إلى أن يزور الجامع الأموي الشريف، فصفَّت العساكر بسراوات الطريق، وسار جلالتهما بالحاشية الكريمة، والوزراء، والأمراء يتبعهما، ووراء مركبتهما اثنان من الحرس بالعلمين الملكيين، ومن وراء هذين اثنان من العسكر الزحاف العثماني، وهما محمد آغا بدوي، وحسن آغا محمد من قضاء مرجعيون، فدخل جلالتهما الجامع، وطافا فيه ينعمان النظر فيما يحتويه من بديع الصناعة من فسيفساء وزخارف بهيجة، وكان دليل جلالته، وممهد خطواته في ذلك الطواف حضرة مهندس البلدية أوبري أفندي، ولما فرغا من الطواف خرجا من الباب الشمالي قاصدين مقام المغفور له السلطان صلاح الدين الأيوبي.

❖ ❖ ❖

الإمبراطور في مقام المغفور له السلطان صلاح الدين الأيوبي

بعد خروجهما من الجامع الأموي الشريف دخلا مقام المغفور له السلطان صلاح الدين الأيوبي مع نساء الشرف، فزارا ضريحه، ثم خرج الإمبراطور والإمبراطورة ومن ورائهما نساء الشرف، وقد أمر ذو الجلالة بعد عودته إلى مقره العالي بوضع طاقة من الأزهار على الضريح المشار إليه بما يليق من التجلة والإكرام بعد أن كتب عليها بالألمانية «ويلهلم الثاني قيصر ألمانيا، وملك بروسيا تذكاراً للبطل

السلطان صلاح الدين الأيوبي» وإرسالها كان بواسطة جلالة الإمبراطورة مع لجنة مخصوصة برئاسة عزتلو صادق بك العظم.

❖ ❖ ❖

الإمبراطور في بيت المغفور له أسعد باشا العظم

دخل صاحب الجلالة إلى بيت المغفور له أسعد باشا العظم الذائع الصيت، وبعد أن تأملا في كل ما يحتويه من النفائس وقف جلالته بهذه الدار الكبرى، وجلالتها على كرسي عن يساره، ولديهما في فناء واسع شرذمة من عربان البادية يرقصون وبأيديهم السيوف، فسرا من ذلك المشهد، ثم دخلا قاعة الاستقبال، وهي ملصوقة بجدرانها الصفائح الصينية النفيسة من ذوات اللون الذهبي في نقشها واللون الأزرق، وغيرهما من الألوان، فأعجب جلالتها ما كان من اللونين المذكورين، فاستأذنها سعادة محمد باشا العظم إذ ذاك أن يهدي إلى جلالتها هدية منها صحيفتين كبيرة، وصغيرة، وجاماً[1] صغيراً وفنجاني قهوة، فارتاحت إلى قبولها، وكانت في أثناء طوافها في البيت تلتفت إلى جلالته كلما استوقف نظرها نفيسة من تلك النفائس، وتكلمه باسمةً، وقد أهدى جلالته الأسرة الكريمة المشار إليها رسمه مكتوباً عليه بخطه ما يدل على أنه تذكار لزيارته بيتهم الكريم.

❖ ❖ ❖

(١) زجاج أو كأس من الزجاج.

الإمبراطور في بيت جناب عزتلو جبران أفندي شامية[1]

لما كانت الساعة العاشرة من صباح اليوم المكور آنفاً أتى جلالتهما بيت جناب عزتلو جبران أفندي شامية أحد وجهاء دمشق، وعندما بلغا الباب الكبير الخارجي إذا بسبع فتيات بثياب بيض تغشاها ألوان العلم الألماني أخذن ينثرن الأزهار عند أقدامهما، ورفع لجلالتهما نجل جبران أفندي الفتى الذكي توفيق أفندي باقة من الأزهار، ثم تقدمت لجلالتها السيدات الكريمات من آل شامية، فحدثتهن بتلطف ومؤانسة، ثم جلس جلالتهما في قاعة الاستقبال، فقدمت لهما المرطبات، ثم أراد جلالته أن يرى القاعة التي كلل فيها المرحوم سليم أفندي شلهوب يوم كان المغفور له والد جلالته في دمشق اشبيناً له، فشاهدها، ثم عادا إلى القاعة الكبرى قائلاً لأحد الوزراء من مصاحبيه كان في هذا المكان من يعرف المرحوم والدي، ثم اشتمل لديه إميل أفندي نجل المرحوم سليم شلهوب، فسأله بالإفرنسية كم عمرك، فأجاب سبع عشرة سنة، قال وأين أبوك وأمك؟ أجاب: أطال الله بقاء جلالتك قد أفقدتني إياهما المنون. قال: وهل لك أشقاء؟ فأجاب: نعم لي، ولكن في الاسكندرية، ثم التفت جلالته إلى وزيره وأسرّ إليه شيئاً، فأحنى الوزير رأسه، ثم انعطف جلالته ببصره الكريم على إميل، وقال له: أعرفك بالوزير، فإنه جاء مع المرحوم والدي إلى بيتكم، فهو يعرف ما في هذا البيت، فمد الوزير يده إلى الفتى، وصافحه، ثم قال له: أن يقدم عريضة

(1) هو البيت الذي كان ملكاً للمرحوم أنطون الشامي وجرى فيه قران المرحوم سليم شلهوب الذي كان المغفور له والد جلالة الإمبراطور غليوم إشبيناً له وذلك منذ ٢٩ سنة.

واقع الحال كانت معه، ثم خرج من ذلك المجلس الكبير، وقلبه يدعو بطول بقاء جلالته، وقد وهبه ذو الجلالة بعد ذلك مبلغاً من النقود.

❖ ❖ ❖

الإمبراطور في بيت الموسيو لوتكي قنصل دولة ألمانيا

في الساعة الحادية عشرة خرج جلالتهما من بيت جبران أفندي شامية، وذهبا ليزورا جناب الموسيو لوتيكي قنصل دولة ألمانيا الفخيمة، فبلغا بيته الساعة ١١، وجلسا في قاعة الاستقبال ومعهما بعض الوزراء، وجلس الباقون في قاعة أخرى، فأديرت المرطبات، فلم يشاء[1] جلالتهما أن يتناولا منها، وإنما أرادا شيئاً من الشاي والجعة (البيرة)، فقدم ذلك لهما، وكان لدى جلالته حينئذٍ مجلة »ألبوم« تشمل على رسوم مختلفة على منضدة صغيرة مرصعة بالصدف، فتناولها، وجعل يقلب رسومها كأنه لا يريد أن يدع شيئاً إلا ويرسمه في لوح خياله الكريم، ولما آن الظهر خرج جلالتهما إلى مقرهما بسراي العسكرية بعد أن وهبت جلالتها أبناء المسيو لوتيكي هبات نفيسة، فقبَّلت مدام لوتيكي يدها الكريمة.

❖ ❖ ❖

الإمبراطور في المرجة والاستعراض العسكري

لما كانت الساعة الثالثة بعد ظهر يوم الثلاثا المذكور بدا من جلالته ميل إلى استعراض العساكر الشاهانية الظافرة، فصفَّت الجنود إلى الطريق على النسق الذي صفَّت عليه من قبل، وسار جلالته على جواده الأشهب يحفُّ به ركبه الكريم من وزراء وأمراء

---

(١) الأصح: يشأ.

فرساناً وعلى مركبات. وأما جلالتها، فركبت مركبة فاخرة وإلى جانبها إحدى نساء الشرف، وسارت ابتغاء التنزه بين حدائق دمشق النضيرة، ولما بلغ جلالته المرجة أخذت سلامه العساكر وهي مصطفة في الجهة الغربية منها، وصدحت الموسيقات الشاهانية بنغماتها المطربة، فطاف بين الصفوف، ثم عاد إلى وسط تلك الرحبة الفسيحة ووراءه الوزراء والأمراء واثنان من الحرس الإمبراطوري بيد كل منهما العلم الملكي والعلم الإمبراطوري الخاص، ثم اثنان من العسكر الزحاف، ومعهما بندقياتهما، وكان إلى الجانب الأيمن موثقتان عثمانيتان، فأخذ حينئذ في استعراض العساكر، فعرضت فرقة فرقة، ثم عرضت الفرسان، ثم المدفعيون، وكان عدد العساكر المستعرضة يومئذ بقيادة القومندان حقي باشا ستة آلاف من البيّاده، وثلاثة آلاف من السواري بقيادة نوري باشا، وثلاثة آلاف من المدفعيين، كل مدفع تجره ستة أفراس وعليها فوارسها، ولما فُرغ من عرض الجنود وقد سر جلالته مما شهد من إتقان وترتيب، وضبط، وإحكام في الحركات أقبل حضرة سعادتلو عبد الرحمن باشا أمير ركب الحج الشريف في مايتين وخمسين فارساً من عربان البادية، والجركس، والحورانيين بعض منهم على الخيل، وبعض على النياق، وبعض من النياق تحمل هوادج مزدانة، وأخرى عليها اثنان، أو ثلاثة من حملة الرماح، وكان بيد اثنين من الهجانة علما الدولتين العثماني والألماني وشرعوا يجولون في الميدان على طريقة بني هلال، فسر جلالته من ذلك المشهد الغريب، ثم تقدم حضرة قومندان الطوبجية[1] نحو جلالته، فقال له (أهنئك بحسن انتظام مدفعيتك

(١) الطوبجية: المدفعيين.

التي تضاهي أحسن مدفعيات الدول) فقبَّل القومندان يد جلالته، وانصرف. أما جلالتهما، فقد عادا إلى سراي العسكرية.

❖ ❖ ❖

الإمبراطور في بيت دولتلو ناظم باشا

لما كانت الساعة نصف بعد الثالثة من بعد الظهر جنحت نفس جلالته أن يزور حضرة صاحب الدولة ناظم باشا في داره الرحيبة وكانت هذه الدار قد ألبست حلة من الزينة بهية، وأرصدت فيها معدات المسرَّة، على أتم ما ينبغي من الإتقان حتى إذا ما بلغها جلالته كانت ضاحكة بزينتها طرباً بالزائر الكريم والموسيقى تصدح بأطيب الأنغام، واستقبل جلالته باحتفال كبير، وكان مصاحباً له في هذه الزيارة حضرة المسيو دوبولوف ناظر الخارجية الألمانية، وحضرة توفيق باشا سفير الدولة العلية في برلين، ومكث عند دولة المزور[1] ساعة كاملة كان بأثنائها يلاطف أنجاله الكرام من حين لآخر، وقد قدم لجلالته المرطبات حينئذٍ سعادتلو جلال الدين بك أفندي صهر حضرة الوالي المشار إليه بيده وقد أتحف جلالته دولة ناظم باشا برسمه مكتوباً عليه ما يدل على الإهداء، ثم أتحفه أيضاً بعلبة تبغ ذهبية مرصعة بالحجارة الكريمة وعليها رسم جلالته عند عودته إلى بيروت كما أن جلالتها أتحفته برسمها وقد بدا من جلالته ميل شديد إليه، فكان يؤاكله على مائدته، ويلاطفه كثيراً، وقدم دولته لجلالته فرش حجرة نفيس من المصنوعات السورية خشبه مرصع بالصدف النقي وبعضه باللؤلؤ.

❖ ❖ ❖

---

(١) المزور: المضيف.

الإمبراطور في دائرة البلدية

أعدت البلدية باسم عظمة المتبوع الأعظم لجلالة الإمبراطورين مأدبة[1] أنيقة في غرفتين من دائرتها بدمشق حتى إذا كانت الساعة السابعة بعد ظهر اليوم الآنف الذكر أقبل جلالتهما على عربة في موكب كبير، فأخذت سلامهما العساكر وهي مصطفة ألوفا لدى الدائرة البلدية، وصدحت الموسيقى بأطيب الألحان، وكان جلالته بلباس عسكري رمادي اللون وصدره الرحيب مرصّع بدرر النياشين العثمانية ومسدسه إلى يمينه، وسيفه إلى يساره، وجلالتها بلباس من الحرير الأبيض، وقبعتها من أزهار بيضاء ضاربة إلى الحمرة، وبعد أن احتفلت لجنة الضيافة[2] باستقبالهما، وقدمت لجلالتهما

---

(1) إن المأدبة التي أعدتها البلدية هي ذات أربعة وستين كرسياً مدّت في غرفتين إحداهما للإمبراطور مدّت فيها المائدة على شكل هلال، وكانت جدرانها مزدانة بالنفائس والأزهار، والرياحين، وآنية الطعام من الصحف والملاعق والشوكات والسكاكين وغير ذلك كله، فهي جميعها من الفضة النقية، وأما آنية الحلوى، فجميعها من ذهب خالص، وقاعة الاستقبال في الدائرة المذكورة تحتوي على مقعدين نفيسين، وستة كراسي من خشب مرصع بالصدف النقي، وعليها غشاوات من حرير لطيف، ومراء (جمع مرآة) أطرها وغشاواتها كذلك، وكل هذه الأشياء من صناعة الدمشقيين، وجدران القاعة يكسوها طنافس من حرير وجلها فرش بالطنافس النفيسة أيضاً، والغرفة المعدة للحاشية الكريمة تكاد تحاكيها في الإتقان.

(٢) إن لجنة الضيافة التي تنظمت تحت رئاسة حضرة صاحب الدولة ناظم باشا كانت مؤلفة من كل من حضرة أصحاب السعادة أمين علي بك دفتردار ولاية سورية، وعبد الرحمان باشا أمير ركب الحاج الشريف، ومحمد فوزي باشا العظم أحد أعضاء مجلس الإدارة، وخسرو باشا قومندان الجندرمة، وخليل أفندي الحوري مدير الأمور الأجنبية، ومن كل من أصحاب العزة =

المرطبات جلسا إلى المائدة والطعام صنوف وألوان، وجلس إلى جانبيهما الوزراء والأمراء، وجلس إلى المائدة الثانية رجال الحاشية، وسواهم من المدعوين، وكان القائمون بأمر الخدمة كثيرون[1] من وجهاء دمشق ومن الخدمة السلطانية بأردية من الجوخ الأحمر مزركشة بالقصب وعلى صدر كل منهم نياشين عديدة، وقد وقف على المائدة موقف الخطابة بين يدي جلالته حضرة العالم الفاضل فضيلتلو محمد أفندي الكزبري نجل حضرة العلامة الطائر الشهرة سليم أفندي الكزبري، فخطب مرحباً بجلالتهما خطاباً كان له وقع حسن، وقد ترجم إلى الألمانية بلسان عزتلو صادق بك وهذه صورته:

لا عجب إذا اضطرب جناني، وتلعثم لساني لأني واقف بأعتاب إمبراطور عظيم، وقائد كبير شهير تهتز الأرض لهيبته، وتخر الجبابرة لشوكته وصولته. أجل هو ذلك الإمبراطور الذي طبقت فضائله البلاد، وأدهشت مآثره عقول العباد. هو ذلك الإمبراطور الذي بلّغ بسياسته، وحكمته الأمة العظيمة الألمانية أقصى درجات الكمال، وارتقت هذا الارتقاء العجيب الذي جعلنا نعتقد أن الطفرة غير محال ارتقاءً لم يسبق له مثيل في تاريخ الأمم والأجيال. ارتقاءً حيّر العالم الأوروبي والأمريكي بالنظر لاتساع نطاقه. ووجيز مدته. فيا جلالة الإمبراطور إن مدينة دمشق الشهيرة ترحب ترحيباً عظيماً بتشريفكم إياها في خلال زيارتكم للممالك المحروسة

= خليل بك العظم، والشيخ سليم أفندي قصاب حسن، والبكباشي عزت بك، ورئيف بك كاتب سر الولاية، ونابلسي زاده إسماعيل حقي أفندي باشكاتب محكمة الاستئناف.

(1) كذا.

العثمانية إظهاراً لما بين جلالتكم وسيدنا الخليفة الأعظم من آثار الود والمصافاة. وتأكيداً لما بين الأمتين العظيمتين من روابط الألفة وحسن الصلات. التي امتلكتم بها محبة العثمانيين عموماً، واستملته قلوب ثلاثمائة مليون من المسلمين القاطنين في مشارق الأرض ومغاربها المرتبطين رباطاً دينياً روحياً بمقام الخلافة العظمى، فهم يذكرون على الدوام هذه الزيارة مقرونة بالشكر والدعاء، وترتيل آيات الحمد والثناء على ما لجلالتكم من الأيادي البيضاء والمساعدات الأدبية للأمة المعظمة العثمانية مما سيكون له شأن كبير في تاريخ الأمتين الألمانية والعثمانية المرتبطتين برباط الحب رباطاً ودياً وإنَّ مدينة دمشق تفتخر، وتباهي الأفلاك بوجود جلالتكم في أرجائها وإن ذلك سيكون أعظم ما يدوَّن في تاريخها وأنبائها، هذا وإني بالأصالة عن نفسي، وبالنيابة عن مواطنيَّ الدمشقيين أقدم بين يدي عظمتكم كمال التعظيم والإجلال سائلاً المولى جل وعلا أن يديم بركاته عليكم وعلى شعبكم العظيم بمنِّه وكرمه آمين.

ثم خطب جلالته خطاباً أنيقاً باللغة الألمانية عرَّبه حضرة صادق بك المشار إليه، وهذا تعريبه الكريم:

«إن ما لقيناه من الاحترامات، والتعظيمات سواء في صورة استقبالنا هنا، أو أثناء تجوالنا بالمدن العثمانية التي مررنا بها، وجرت لنا فيها المراسم الاحترامية خصوصاً مدينة دمشق الشهيرة التي كنا فيها مظهر الاستقبال الشائق والقبول الفائق يحملني على أن أرى من الواجبات إبداء الشكر بإسمي، واسم حضرة الإمبراطورة، فكما إنني متلذذ بهذا الشعور العميق من الامتنان لهذه المراسم الاحتفالية الشائقة الفائقة كذلك أراني مبتهجاً من صميم

فؤادي عندما أفتكر بأنني في مدينة عاش بها من كان أعظم أبطال الملوك الغابرة بأسرها الشهم الذي تعالى صدره بتعليمه أعدائه كيف تكون. ألا وهو المجاهد الباسل السلطان صلاح الدين الأيوبي منتهزاً هذه الفرصة لأن أبيِّن قبل كل شيء بسرور لا مزيد عليه تشكراتي لحضرة ذي الشوكة السلطان عبد الحميد خان الذي أفتخر بخالص محبته وجميل معاملته، وليوقن صاحب الشوكة السلطان عبد الحميد خان الثاني والثلثمائة مليون من المسلمين المرتبطين بمقام خلافته العظمى ارتباطاً قوياً، والمنتشرين في جميع أنحاء الكرة الأرضية أن إمبراطور ألمانيا سيبقى محباً لهم إلى الأبد، وها أنا اشرب نخب حضرة صاحب الشوكة السلطان عبد الحميد خان الثاني».

ثم بعد الفراغ من الطعام جلس جلالته بقاعة الاستقبال واستمثل[1] لديه محمد أفندي المشار إليه، وصافحه يداً بيد، وشكره لما بدا في خطابه من الشعائر الصادقة.

ثم استمثلته جلالتها إلى الحجرة المعدة لجلوسها، وصافحته بهز اليد أيضاً، وطلبت منه بواسطة حضرة صادق بك إعادة الخطاب، فتلاه لدى جلالتها، فشكرته شكراً جزيلاً، وحبته بخاتم من ذهب مرصع بأربعة وعشرين حجراً من الماس، وحجرين من الياقوت ترصيعاً يمثل التاج الملكي والحرف الأول من اسم جلالته.

وكان بأثناء ذلك بضعة رجال يضربون على آلات الطرب العربية كالعود والقانون، ويتغنون بالأغاني العربية الشجية.

وعند الساعة ٩ ركب جلالتهما عربة واحدة، وعادا إلى مقرهما العالي.

---

(١) استمثل: استقبل.

أما زينة دمشق عموماً في تلك الليلة والبلدية خصوصاً، فإنها كانت بالغة حد الإتقان بهمة حضرة أعضاء البلدية ومهندسيها، ولا سيما حضرة الأريحي النزيه سعادتلو محمود أفندي الخجا رئيسها الذي بذل قصارى جهده في أرصاد تلك المعدات البديعة الصنع الدالة على مزيد من الاعتناء بالاحتفاء، وقد أهدى إليه جلالة الإمبراطور وهو في بعلبك رسمه مكبَّراً مكتوباً عليه بيده الكريمة باللغة الألمانية ما يفيد أن الرسم تذكار للمجلس البلدي.

❖ ❖ ❖

الإمبراطور في الصالحية

لما كانت الساعة العاشرة قبل ظهر يوم الأربعاء تاسع تشرين الثاني خرج جلالتهما فارسين إلى الصالحية المشرفة على دمشق وحدائقها، وكانت قد أعدت لهما البلدية المضارب على أكمة هنالك في خمسة أيام إعداداً متقناً وذلك بهمة حضرة رئيسها الهمام سعادتلو محمود أفندي الخجا، وأحد أعضائها الأفاضل منير زاده رفعتلو سعيد أفندي، وقد أنفقت على ذلك نحو مئتي ليرة وبعد أن قضى جلالتهما نحو ساعة يسرحان فيها طائر الطرف في تلك السهول الشاسعة عادا إلى سراي العسكرية لمناولة الغذاء، وقد تلطفا، فدعيا لمناولة الطعام على مائدتهما الكريمة حضرة صاحبي السعادة سروري بك متصرف حماه، ومحمود أفندي الخجا رئيس بلدية دمشق.

ولما كان جلالته قد سُرَّ من المناظر الطبيعية التي شاهدها في الصالحية أظهر ارتياحه إلى الذهاب إليها مرة أخرى. وعند الساعة الرابعة بعد ظهر اليوم المذكور سار إليها راكباً جواده الأشهب

محفوفاً بالوزراء، والأمراء، والعساكر الشاهانية، وبعد بضع دقائق وصلت جلالتها على مركبة قادمة في طريق الباب الشرقي، فالصوفانية، فبرج الروس، فمز القصب، فالعمارة، وإلى جانبها إحدى نساء الشرف، ووراءها ألوف من الحاشية، والناس، وكان جلالته لم يزل واقفاً أمام المضرب الذي أعد لجلوسهما ينظر إلى حدائق[1] دمشق الغناء بنظارة كبيرة وضعت هنالك، ثم أقبل نحو مائتي رجل بأياديهم المشاعيل الموقدة، وقد كانت الشمس على المغيب، وبأيدي البعض منهم سيوف كانوا يتثاقفون لعباً بها، فسرَّ جلالتهما من ذلك، ثم إن حضرة توفيق باشا قدَّم لجلالتهما بضعة شبان من بيوتات كريمة، فقابلاهم ببشاشة، ثم انصرفوا، وقد نالوا الرضى، وفازوا بقبلة أيديهما الكريمة.

ولما توارت الشمس بالحجاب ظهرت دمشق بحلة من النور بديعة، وبدت المصابيح في مقام الأربعين في الجهة الشمالية لدمشق تمثل بأنوارها الساطعة الحرفين الأولين من اسمي جلالتهما، فسرَّا من هذا المنظر البهيج. وحينئذٍ ركب جلالته جواده الأشهب، وجلالتها المركبة، وعادا في موكبهما العظيم إلى مقرهما العالي، وقد تعطفا، فدعيا لمناولة العشاء على مائدتهما الكريمة ليلتئذٍ كلاً من أصحاب السعادة عبد الرحمن باشا أمير ركب الحج، ومحمد باشا العظم وشقيقه خليل بك.

❖ ❖ ❖

---

(١) هي الحدائق الغناء المشهورة التي من جملتها حدائق وادي النيربين الكائنة في الجهة الغربية من دمشق، وكثيراً ما وردت في وصف الشعراء لنضارتها، وغزارة مائها.

وداع الإمبراطور في محطة البرامكة

عند الساعة ٩ من نهار الخميس عاشر تشرين الثاني أقبل جلالتهما إلى محطة البرامكة وكان جلالته فارساً وجلالتها بالعربة وإلى جانبها إحدى نساء الشرف، فأخذت سلامهما العساكر الظافرة، وكان قد احتشد إلى المحطة المذكورة الوزراء، والأمراء من عسكريين، وملكيين، والرؤساء الروحيين، والوجهاء، فدخل جلالتهما إلى القاعة المعدة لاستقبالهما التي فرشت بالطنافس النفيسة فحياهم جلالته جميعاً، ثم صافحتهم بهز الأيدي، وركبا القطار المعدّ لركوبهما بعد أن قدمت مدام المسيو لوتيكي لجلالتها طاقة من الأزهار، وقبّلت يدها الكريمة. وعند ذلك أطلقت المدافع من القشلاق العسكرية، وصدحت الموسيقى الشاهانية، وجرى القطار بجلالتهما ينساب في تلك البطاح.

وكان قبل وصول جلالتهما إلى المحطة يومئذٍ حضرت إحدى نساء الشرف تنتظر قدومهما، وأخذت رسوم كثيرين ممن كانوا في المحطة يومئذٍ.

❖ ❖ ❖

الإمبراطور في محطة معلقة زحلة راجعاً من دمشق

بينما كانت الجموع محتشدة عند ظهر الخميس المشار إليه في محطة المعلقة ألوفاً مؤلفة ينتظرون قدوم جلالتهما إذا بالقطار قد أقبل يقلُّ بعض الضباط العثمانيين، والحرس الخاص العثماني المعروف بالزحاف، فنزلوا ريثما استراحوا، ثم استأنفوا المسير إلى بعلبك على عربات معدَّة لهم، وبعد ذلك بقليل وصل الحرس

الإمبراطوري الخاص، وعند الظهر وصل قطار الإمبراطور الخاص، فخرج جلالتهما في موكبهما البديع، وبينما هما سائران إلى المضرب الكبير المعدّ لهما مثل أمامها اثنتا عشرة عذراء أدبيات أعدَّهن جناب رفعتلو اسكندر أفندي كحيل وهن لابسات أثواب صوف بيضاء عليها عقد بألوان العلم الألماني، وعلى طوقها الهلال العثماني، فقدمن لها اثنتي عشرة طاقة أزهار متقنة الصنع، وتقدمت اثنتان منهن، وهما الآنستان ماري سالم، ويمنى كحيل، وبأيديهما طاقتان من الأزهار قدمتاهما لجلالتها. أما الآنسة ماري سالم، فخطبت بالإفرنسية محبة بهما وشاكرة لهما على تنازلهما ولطفهما ذاكرة علاقاتها الودية مع الذات السنية الشاهانية، وختمتها بالدعاء لهما، فطلبت جلالتها منها رقعة زيارة باسمها، فوقعتها، وقدمتها لها، وقد صافحها جلالته بيده أيضاً، ثم جاءت إحدى نساء الشرف، وسألتها بعض مسائل من جملتها: (هل قلتِ هذا من قلبك؟) فأجابتها: نعم، ثم قدمت لجلالتها كريمة الخواجة سليم نصر قطعة قماش حريري تمثل شكل الهلال الأنور بألوان العلم الألماني مطرزة بالذهب الإبريز وقد طرّز على جانبها الأيمن هذان البيتان وهما من نظم جناب رفعتلو داود بك نقاش:

ملكت فكتوريا   قلبنا كما تشا
كونها قد حالفت   بادشاهم جوق يشا

وفي وسط الهلال الطغراء الهمايونية الغراء مزركشة بالقصب الفضي، وفي الجانب الأيسر مطرزة بالألمانية معلنة شعائر السرور بزيارة جلالتهما للممالك المحروسة الشاهانية، ثم تاريخ زيارتهما، فتعطفت جلالتها بقبولها مسرورة من تلك الهدايا النفيسة، وبعد أن شكرا أصحاب التقادم دخلا المضرب الكبير بأبهة بين سلام الجند،

وهتاف الشعب المجتمع هنالك ألوفاً يصفقون، ويضجون بالسرور والدعاء، فتناولا المرطبات، واستراحا من عناء السفر، أما العربات، فقد أخذت تتوالى ذاهبة إلى بعلبك، ثم ذهب ثلاثة كواكب من فرسان الجند إحداها إثر الأخرى ثم البطانة الملوكية على عربات، وكان الحرس الخاص يسير على عربات مثنى وثلاث ورباع على نظام بديع بين الواحدة والأخرى بضع دقائق، وبينهم بعض البحريين الألمانيين، ثم نساء الشرف، ثم بعض ضباط عثمانيين في غاية من النظام والترتيب، فكان مشهداً يأخذ بمجامع الأبصار.

وعند الساعة الواحدة ونصف تحولت الناس من جهة المحطة إلى الطريق المؤدي إلى بعلبك، فتراصفوا على جانبيه ألوفاً لأن جلالتهما ركبا عربة يقودها جوادان أشقران، وأمامهما عربة تحمل الأزهار المهداة إليهما، ثم فرساناً من الجند، ووراءهما كبار الوزراء والحرس الإمبراطوري، فكان المشهد حافلاً جداً، فمرا بين تلك الجماهير متجهين إلى بعلبك، وعند خروجهما من المحطة كانت الطريق مزدانة بأبهى زينة منها قبة زرقاء بديعة في أعلاها أعلام حريرية غراء كتب على إحداها »فليعش السلطان عبد الحميد خان« وعلى الأخرى بالألمانية »فليعش الإمبراطور والإمبراطورة« وعلى جانبي الطريق أعمدة تمثل شجر السرو وفوقها أعلام الدولتين مثنى وثلاث على نحو خمس مائة متر والجماهير تضج بالدعاء وجلالته يحييهم ببشاشة برفع يده الكريمة مسروراً وكان ذلك الموكب بديعاً جداً، ولما وصلا قرية ابلح وبعض القرى المجاورة كانت الفرسان تتراكض لاستقبال جلالتهما، وأُقيمت بعض الاحتفالات على الطريق من أقواس النصر بالرياحين، فكان الموكب يزداد بهجة إلى أن بلغوا مدينة بعلبك، ونخص بالذكر الزينة التي أعدها في ابلح

جناب رفعتلو عبده أفندي سمعان أحد أعضاء محكمة البقاع وما أجرى من الاحتفال حين قدومهما، فإنه قد نصب على نفقته فوق الطريق في أوائل القرية قوس نصر بديع قد ازدان بالأزهار، والأعلام العثمانية، والألمانية، وعلق فيه لوحين كتب على أحدهما «فليعش سلطاننا عبد الحميد خان»، وعلى الآخر «فليعش الإمبراطور والإمبراطورة» وقد كان على جانبي الطريق التي قد نصب فيها كثير من الأعلام العثمانية والألمانية، ومئات من الناس حاملين الأزهار تتقدمهم الكهنة حاملين الأواني المقدسة، ولما مرّ الموكب الإمبراطوري هتفوا جميعاً بالدعاء لجلالتهما، ثم أخذ من كان هنالك من الفرسان الذين يبلغ عددهم نحو مئة فارس يلعبون على ظهور الخيل بالرماح، فأظهر جلالتهما ارتياحهما إلى هذا المشهد البديع، وظلا سائرين.

❖ ❖ ❖

الإمبراطور في بعلبك

بلغ جلالتهما مدينة بعلبك[1] نحو الساعة الخامسة بعد الظهر،

---

(١) إن مدينة بعلبك واقعة بسفح جبل انتيلبنان بينها وبين دمشق ٣١ ميلاً، وبينها وبين معلقة زحلة طريق عربات طولها ٣٥ كيلو متراً، وكانت قبلاً على جانب عظيم من الانتظام في هيئتها، وقد أحاطتها أسوار، وأبراج عديدة غاية في المتانة على مسافة ميلين، أما اليوم، فتعدُّ من القصبات المُمتازة، وتسقي بساتينها من مياه رأس العين المشهورة بعذوبتها وصفائها، وبين المدينة، وهذا المكان طريق عربات طوله ٥ كيلو متر، وفيها مركز قائمقامية قضاء باسمها وعدد أهاليها يبلغ ستة آلاف نفس تقريباً وأكثرهم من المسلمين، وقد اشتهرت بقلعتها ذات الثلاثة هياكل العظيمة المشهورة وما هي عليه من غريب الصناعة. =

فاستقبلهما حضرة عزتلو حسين عوني أفندي قائمقام القضاء في جمهور من الناس بكسوته الرسمية، وجماعة من عرب البادية من فرسان ونساء في الهوادج يتبارون في ميادين السباق، ويتغنون بالأهازيج، وكان قد أعدَّ لجلالتهما زينة في المدينة بهية ونصب في مداخل المدينة قوس نصر كلِّل بالرياحين والأزهار، وأقيمت من فوقه الأعلام العثمانية والألمانية، وكذلك كانت المدينة تغشاها الأزهار، والرياحين، وتخفق فوق منازلها الرايات، وأما القلعة، فكانت مزينة بألوف من المصابيح وهي لم تزيَّن من قبل البتة، فدخل جلالته المضارب في فناء القلعة، ولم يلبث أن دخل القلعة نفسها والموسيقى تعزف بأطيب الألحان، وقد كان فيها صفيحة من حجر كتب بإرادة سنية على وجهيها باللغتين التركية والألمانية يعلو الكتابة التركية

= فأولها الهيكل الكبير وقد قيل في وصفه إنه من عجائب الدنيا لأنه قد بني من حجارة كبيرة يبلغ طول الحجر منها ٦٠ قدماً وعرضه ١٣ قدماً وعلوه ٢٠ قدماً، وهو مؤلف من تسعة عشر عموداً. وعلى كل من طرفيه ١٠ أعمدة بقاعدة ٧ أقدام و٣ قراريط بعلو ٧٥ قدماً بطول ٢٩٠ قدماً.

والثاني هيكل الشمس المؤلف من ٤٢ عموداً كل منها بقاعدة ٦٥ قدماً ومساحة قطرها عندها ٦ أقدام و٣ قراريط وعند رأسها ٥ اقدام و٨ قراريط، فيكون مجمل طوله ٢٢٧ قدماً وعرضه ١٧٠ قدماً، وقد نقشت هذه الأعمدة نقشاً بديعاً يدهش النظر، ويحير الأبصار.

والثالث هيكل المستدير وهو ليس بأقل اتقاناً من الأولين فإن محيط دائرته ٣٨ قدماً، وبجانبه حجر كبير بديع الصنع يسمى حجر الحبلى طوله ٦٨ قدماً، وعرضه ١٣ قدماً و١١ قيراطاً وعلوه ١٤ قدماً وقيراطان، وإلى جانب الأكمة إلى الجنوب الغربي من المدينة أثر عمود يبلغ علوه مع قاعدته ٣٨ قدماً، ومن النظر إليه يتبادر للذهن أنه كان منقوشاً عليه بعض كتابات محتها يد الأيام، وقد قيل عن هذه الهياكل أنها كانت معابد لآلهة الوثنيين.

الطغراء العثمانية والألمانية الشعار الألماني أما الكتابة فهذا معربها (بمناسبة زيارة إمبراطور ألمانيا وملك بروسيا جلالة غليوم الثاني وحضرة قرينته أوغسطا الإمبراطورة لحضرة سلطان العثمانيين السلطان ابن السلطان السلطان عبد الحميد خان الغازي الثاني، وذكراً لزيارتهما بعلبك كتب هذا في العاشر من تشرين الثاني سنة ١٨٩٨. أما الصفيحة المشار إليها، فإنها مؤلفة من عدة أحجار رخامية في صفيحة واحدة بإطار من الفسيفساء مرتكزة على قاعدة من الحجر السماقي قبالة الدهليز الذي يدخل منه إلى القلعة مغشى بستار من الحرير قد رفعه حضرة ناظم باشا قائلاً إن هذا الأثر إنما جعل بأمر الحضرة العلية السلطانية تذكاراً لهذه الزيارة، فشكر جلالته للحضرة العلية السلطانية، وأمر بنقل الصفيحة إلى هيكل المشتري إزاء الأعمدة المشهورة، وأخذ بيده الكريمة معولاً صغيراً فضياً مذهباً، وضرب الحائط ثلاث ضربات حيث يجب وضعها ثم بعد أن جرى نقلها إلى ذلك المكان كتب تلغرافاً للحضرة السنية السلطانية معرباً عن شكره.

وقد كان هنالك عند الصفيحة كل من حضرة سعادتلو حقي باشا قومندان الفيلق الهمايوني الخامس، والقائمقام المشار إليه، وحبيب باشا مطران، وحضرة رئيس البلدية السيد محمد حسن أفندي مرتضى.

وقد سرّ جلالتهما مما شاهداه من الزينة وحسن الاحتفاء باستقبالهما، وأثنيا على جناب عزتلو رشدي بك شمعة، وقد رفع لجلالتهما من كريمتي صاحب السعادة حبيب باشا مطران باقتان من الزهر اللطيف، وخطبت إحداهما لدى جلالتهما فسرّا منها، وقد تقدم تاريخ بعلبك من مؤلفه مخايل أفندي ألوف بواسطة عزتلو

صادق بك العظم، وفي اليوم الثاني برح جلالتهما من بعلبك إلى المعلقة بعد أن طافت جلالتها تلك الأرجاء، وأخذت رسومها، ولما بلغا بيت شامه[1] من طريقهما استمثلا لديهما اثنين من الفرسان الذين جروا في ركبهما وهما جناب الوجيهين نجيب أفندي يوسف معلوف وسليم أفندي جرجس مسلم من زحلة، ومنحا أحدهما نجيب أفندي مدالية من ذهب، أما هو فقد أهداهما رمحه كما أهداهما الآخر سليم أفندي طقم فرسه الفضي، وقد أخذت جلالتها رسميهما بيدها الكريمة، وأذنت لهما أن يستمرا جاريين في موكبهما إلى المعلقة بدون أن يعترض لهما أحد، وبلغ جلالتهما المعلقة عند الظهر، وبعد أن تناولا الغداء في المضارب ركبا القطار المخصوص، وسارا قاصدين بيروت بموكبهما العظيم، وقد تقدم لجلالته بأثناء وجوده في بعلبك خطبة[2] أنيقة نسج بردها سيادة الحبر العلامة المطران جراسيموس مطران الروم الأرثوذكس في زحلة.

---

(١) قرية كائنة في منتصف الطريق بين بعلبك وزحلة.

(2) صورة الخطاب:

يا ذا الجلالة الإمبراطورية

إن حلول ركاب جلالتكم في سورية الغنية بآثارها يعلي في تاريخها مقاماً لافتخارها وبقدر ما نحن فرحون بهذا الحادث المنعم بالبركات بقدر ذلك نقدم بصفة سوريين عثمانيين شعائر حبنا القلبي لشخص جلالتكم الشريف إذ أننا نرى أنه بواسطة عظمتكم تمد الأمة الألمانية العظيمة مبعث العلوم والفلسفة المقرونة بالتدين يداً ودية أخوية لبلادنا الشرقية التي فيها انتشر الإعلان الإلهي، فكانت مهداً للدين، ومصدراً للمعارف، وكما أن آباء وعلماء وعظماء المشرق يقدرهم الشعب الألماني العظيم قدرهم، ولهم المقام السامي في صروحه العلمية هكذا فلاسفة ومشاهير وعلماء الأمة الألمانية يحصلون عندنا ما يحق لهم من الاعتبار السامي فتاتي أتعابهم بأثمار عميمة الفوائد وهكذا نحن السعيدين تحت ظل جلالة سلطاننا الأعظم نهتز طرباً لتوطيد =

الإمبراطور في محطة عالية راجعاً من دمشق

لما بلغ القطار المقلُّ صاحبي الجلالة عند الساعة الرابعة والعشرين دقيقة من بعد ظهر يوم الجمعة ١١ تشرين الثاني وقف هنالك، وكانت الحكومة اللبنانية السنية قد استعدَّت للقيام بالاحتفال باستقباله من قبل بالجند والموسيقى بإمرة حضرة الأميرالاي الباسل عزتلو ملحم بك أبو شقرا وكان حضرة ذي الدولة نعوم باشا ملاذ المتصرفية الجليلة، وحضرة حرمه المصون، ومعهما حضرة صاحبي السعادة الأمير مصطفى أرسلان، واسكندر بك التويني يرقبون إشراق الطلعة الإمبراطورية، فلما أضاءت المحطة من فيض ذلك النور، خفَّ حضرة ملاذ المتصرفية، وحرمه المصون إلى القطار حيث وقف ذو الجلالة عند باب المركبة ومدَّ يده إلى دولة المتصرف وأصعده إلى المركبة، ووقف به وبحرمه قليلاً في تلك المركبة يوليه تلطفاً والتفاتاً كريماً، ثم دخل جلالته، وحضرة ذي الدولة إلى المركبة التالية حيث كانت ذات الجلالة، وقد بالغ جلالتهما في ملاطفة دولته، وحضرة قرينته الكريمة، فشربا معهما الشاي في المركبة. وأهدى إلى حضرة قرينة دولته إسواراً من ذهب مرصعاً بحجارة كريمة ترصيعاً يمثل الحرفين الأولين من اسم جلالته متلطفاً لها بعبارة الإهداء، وقد ألبستها جلالة الإمبراطورة

= دعائم الحب والولاء بين الإمبراطوريتين العثمانية والألمانية لخير الأمتين الشريفتين المتحابتين، وعليه نتوسل إلى عزة ملك الملوك بأن يبارك نوايا جلالتكم الخيرية، ويكلل مساعيكم الملوكانية بالتوفيق والنجاح، ويحفظ بشخصكم السامي صديقاً حميماً لجلالة مولانا وسلطاننا المعظم أيدهُ الله وإياكم بالنصر المبين آمين.

إياه بيدها، وأهدى جلالته إليها رسمه الكريم وقد كتب عليا بالألمانية ما يأتي: إلى كريمة فرنكو باشا متصرف لبنان الأسبق الذي نال فائق الشرف والاعتبار من المغفور له والدي. وقد أعجب جلالتهما منظر شجر أرز لبنان، فقدم عزتلو ملحم بك أبو شقرا منه لإحدى نساء الشرف فسيلة وأخذ باقي نساء الشرف أغصاناً منه وكثير من الحاشية الكريمة، ولبث القطار في تلك الوقفة أكثر من ٢٠ دقيقة، وحضرة ذي الدولة ممتع في مجلس جلالتها الكريم بكل ملاطفة ومؤانسة، ثم سار القطار يقلُّ جلالتهما مسرورين مما شهدا من حسن الاحتفاء باستقبالهما من الحكومة اللبنانية السنية.

❖ ❖ ❖

الإمبراطور في محطة بيروت راجعاً من دمشق

لما كانت الساعة ٧ من مساء يوم الجمعة المشار إليه موعداً لرجوع القطار الحديدي المقلّ لجلالتهما خفَّ إلى المحطة وهي بحلَّتها البهية من الزينة من أنوار، ورايات عثمانية، وألمانية، ورياحين، وأزهار حضرة دولتلو ناظم باشا، وعطوفتلو رشيد بك أفندي، وأركان الولاية البيروتية، وكلهم بالملابس الرسمية، وكان في تلك المحطة أيضاً جناب قنصل دولة ألمانيا، وجميع موظفي القونصلاتو، والجنود الشاهانية، والموسيقى صفَّت على الطريق، فأقبل على القطار الأول حاشية ذي الجلالة، وسارت إلى الثغر تواً، ثم عقب الحاشية حضرة الوزراء العثمانيين الفخام، والحرس السلطاني الكريم، وتربصوا جميعاً في القبة التي على الرصيف ينتظرون قدوم جلالتهما، وكان عند تلك القبة تلامذة المدرسة

البروسيانية، وفرق من الجند الشاهانية، وتلامذة المدرسة السلطانية والطريق من المحطة إلى الرصيف مزدانة بالرايات، والرياحين، وأنوار المصابيح، وكذلك جميع الدوارع الراسية في الثغر الحافة باليخت الإمبراطوري فإنها كانت تختال تيهاً وعجباً بحلة من الزينة بهية.

فلما بلغ صاحبا الجلالة المحطة، ونزلا من القطار سارا في موكب كبير كان في مقدمته العساكر مشاة، ثم فرساناً، فجمهور الملاقين، فنساء الشرف، فالمركبة الإمبراطورية يتبعهم مئات من العربات، ثم جلالته على جواده الأشهب، فلما بلغ جلالتهما الرصيف صدحت الموسيقى الشاهانية بنغماتها الشجية، وجعلت تتبعث أشعة الألعاب النارية في الجو، فلبثت مدة ذلك الليل بطوله، فمكث جلالتهما في تلك القبة بعضاً من الوقت يتلطفان بالمستقبلين الكرام ثم نزلا إلى زورقهما يطلبان اليخت بين هتاف أهل البر دعاءً وتوديعاً، وهتاف أهل البحر دعاءً وترحيباً.

❖ ❖ ❖

الإمبراطور والوداع

لما كانت الساعة ٥ من صباح يوم السبت ١٢ تشرين الثاني صفّت العساكر المشاة على القسم الوالج في البحر من الرصيف والموسيقى على الرصيف عند القبة والفرسان إلى ذات اليمين من الجهة الأخرى، والوزراء العثمانيين في القبة على الرصيف وكذلك القنصل الألماني، وسائر متوظفي القونصلاتو، وكان جلالة الإمبراطورين على ظهر اليخت، تحفٌّ به الدوارع واقفين وقفة الوداع بين النغمات الموسيقية، وهتاف الجيوش بالدعاء وأصوات

المدافع براً وبحراً، فأشار جلالتهما إلى الجماهير المصطفة إشارة تدل على شكرهما لهم، وزوّدوا المستقبلين الكرام تحية الوداع، وعندئذٍ لم يفت جلالته أن بعث برسالة برقية للحضرة العلية الشاهانية مؤداها:

أزايل تربة الممالك المحروسة الشاهانية قاصداً بلادي مؤسساً في قلبي وقلب الإمبراطورة أوغستا فكتوريا ذكرى لمآثر التلطفات الملوكية التي رأيناها في أثناء إقامتنا في البلاد العثمانية لا تنسى. وإني أيضاً لا أنسى ما رأيته من حسن حفاوة المأمورين الصادقين في القدس وبيروت ولبنان والشام. أذهب أنا والإمبراطورة ولهذه الحالات تأثيرات عظيمة في نفوسنا فتفضلوا لطفاً بقبول تشكراتنا.

فورد الجواب:

يشف عما خالج خاطرها من الممنونية والسرور بعود جلالة زائريها جذلين مسرورين من زيارة ممالكها المحروسة.

ثم مخر اليخت يجري بصاحبي الجلالة محفوفاً بالسلامة تخفره الدارعتان «هرتا» و«هيلا» وقد شيعته الدارعتان العثمانيتان إلى ما وراء الثغر بما يبعد نحو نصف ساعة في البحر.

وقد بلغ جلالتهما برلين في السادس والعشرين من شهر تشرين الثاني سنة ١٨٩٨ محفوفين بمجالي السرور والهناء. وكان جلالته قبل مبارحته الممالك المحروسة العثمانية بعث برسالة تتضمن الولاء والامتنان كتبها بيده الكريمة حضرة البارون مارشال إلى عظمة المتبوع الأعظم، فرفعها حضرة البارون إلى الجناب العالي بعد أن تمثل لدى عظمته في دار السعادة العلية.

❖ ❖ ❖

تعطف جلالة الإمبراطور

ورد على إدارة جريدة لبنان رسالة من جناب السري الفاضل الدكتور شرودر قنصل دولة ألمانيا العام في بيروت تتعلق بما كُتب في جريدة لبنان في زيارة حضرة ذي الجلالة الإمبراطور وقرينته الإمبراطورة لعظمة متبوعنا الأعظم في الممالك العثمانية المحروسة وهي مؤرخة في ١ كانون أول سنة ١٨٩٨ وواقعة تحت نومرو ٢٢٠٩ وهذا تعريبها بالحرف الواحد:

إلى جانب الفاضل إبراهيم بك الأسود صاحب جريدة لبنان قد أبلغتموني بعض أعداد من جريدتكم تتضمن معلومات مفصلة فيما يتعلق بسفر صاحبي الجلالة إمبراطور ألمانيا والإمبراطورة في فلسطين وسورية ومقامهما في هذه الأنحاء.

فرفعت هذه الأعداد إلى جلالة الإمبراطور، وحضرة سفير جلالته بالأستانة كلفني أن أبدي لكم التشكرات الإمبراطورية .

فتفضلوا يا صاحب الجريدة بقبول أكيد اعتباري التام

قنصل جنرال دولة ألمانيا

شرودر

وقد ورد مثل تلك الرسالة على كل من إدارة الجرائد التي نذكرها بحسب أوقات صدورها وهي حديقة الأخبار، ولسان الحال، وبيروت، والأحوال، والصفا[1]، وعلى كل من جناب رفعتلو حكمت أفندي شريف، ونجيب أفندي هواويني.

---

(١) كل هذه أسماء لصحف كانت تصدر في بيروت.

الهدايا
التي لم تسبق الإشارة إليها

في دار السعادة العلية

أهدى عظمة سيدنا ومولانا السلطان الأعظم إلى جلالة الإمبراطور غليوم علبة تبغ وفم سيكارة من الكهرباء وعلبة[1] (للشحط) مرصعة موضوعة في علبة بهية. ومحفظة للورق ثمينة جداً.

وصورتين جميلتين لواقعتي ميلونه ودوموكو في الحرب الأخيرة، وقايقين أحدهما من الخشب المذهب، والثاني من الألومينيوم، وكلاهما من الصناعة العثمانية، وحساماً مرصعاً بمبلغ عشرة آلاف ليرة.

وإلى جلالة الإمبراطورة مشبكاً مرصعاً بألماس فاخر، وتاجاً مرصعاً أيضاً يبلغ ثمنه ٢٥ ألف ليرة.

وإلى حاشية جلالتهما عدة قطع من الخزف الصيني البديعة المصنوعة في قصر يلدز.

أهدى جلالة الإمبراطور إلى عظمة المتبوع الأعظم مثال العصا التي كان يتوكأ عليها فردريك الكبير وقبضتها من الذهب المرصع

---

(١) أتراها تعني ما يسمى الآن بعلبة الكبريت حسب السياق.

بالجواهر الكريمة، وتحفة صناعية نفيسة مؤلفة من ثلاثة تماثيل الأول تمثال الإمبراطور غليوم الأول جدّ الإمبراطور، والثاني تمثال جدته، والثالث يمثل شخصاً عربياً.

وقد أرسل إلى سفير الدولة الألمانية في دار السعادة بعد رجوعه إلى برلين هدية إلى عظمة السلطان الأعظم تحتوي على طبق كبير ذي قيمة كبيرة وقد نقش في وسطه صور رجال الآلاي الخاص لجلالة الإمبراطور وعلى أطرافه أسماء البلاد التي زارها جلالة الإمبراطور في الشرق مع لوحين عليهما صورة جلالته بملابسه المختلفة في أثناء سياحته.

وأهدت جلالة الإمبراطورة لعظمته أواني الشاي والقهوة من الصيني البرليني.

أهدى جلالة الإمبراطور إلى حضرة صاحب الدولة سعيد باشا رئيس شورى الدولة علبة تبغ مرصعة بالحجارة الكريمة عليها صورة الإمبراطور والتاج البروسي منقوش بالمينا.

وإلى فاطمة ذات النور خانم ابنة صاحب العطوفة نوري بك كاتب التحريرات عقداً فريداً من الماس لأنها أنشدت بحضرة جلالته قطعة موسيقى.

وقد تبرع جلالته بمبلغ: ١٦٠٠ ألف فرنك لتوزع على الفقراء وذوي البأساء في العاصمة. وبمبلغ ٤٠٠٠٠ ألف فرنك لتنفق عفي سبيل مشروعات خيرية.

ثم أهدى رسمه ضمن إطار مرصَّع إلى كل من فون شليدز مشاور سفارة ألمانيا، والموسيو[1] تستا حقة مرصعة بألماس. وإلى

---

(١) ربما كان يجب أن يقول وإلى الموسيو تستا.

حضرة دولتلو توفيق باشا ناظر الخارجية حقة تبغ من ذهب عليها الشعار الألماني ورسم الإمبراطور، وإلى كل من أصحاب الدولة منير باشا، وتوفيق باشا، وسليم باشا ملحمه رسم الإمبراطورة موقعاً بخط جلالته ضمن إطار من ذهب، وأنعم بمبلغ جزيل على حشم القصر السلطاني وغلمانه.

وأهدت جلالة الإمبراطورة إلى كل من السيدات ماري سويوتزوغلو، وماري رانسيولش وأملي اللواتي تولين خدمتها المخصوصة حلية للصدر مرصعة بالحجارة الكريمة وعليها الشعار الألماني.

قدّم حضرة دولتلو رضوان باشا أمين الأستانة باسم الأهالي إلى جلالة الإمبراطور والإمبراطورة إنائين من فضة غاية في دقة الصناعة واللطافة، وقد جعل على كل منهما مدالية (ذكرى السياحة) نقش عليها بالتركية ما معربه: قُدم من أمانة البلدة باسم أهالي دار السعادة تذكاراً للسرور والابتهاج بزيارة حضرة الإمبراطور غليوم الثاني إمبراطور ألمانية لعاصمة السلطنة السنية للمرة الثانية نظراً لفرط مودته لحضرة سيدنا ومولانا السلطان الأعظم في ٢ جمادى الثانية سنة ١٣١٦ و١٧ تشرين أول سنة ١٨٩٨.

ونقش عليها بالألمانية مآل ما ذكر. أما العبارة التركية فقد كتبت بخط التعليق للخطاط الشهير عزتلو عزت أفندي.

وقدمت الجالية الألمانية عريضة التكريم والترحيب بجلالتهما منقوشة على رقي غزال مجلدة بالقطيفة والفضة، وعلى ظاهرهما رسوم بديعة من جملتها التاج الإمبراطوري، وإلى جانبيه شعار الإمبراطورة والنسر والهلال العثماني، ورسم برج غلطه، وقسم من الأستانة بينهما النسر الإمبراطوري.

في القدس

قدَّمت الجالية الألمانية في القدس توراةً جناحاها من خشب الأرز محفور عليهما رسم كنيسة المخلِّص الألمانية الجديدة، وكرسياً لها من خشب الزيتون النقي، وقطعة الأرز التي صنع منها جناحا التوراة قد أهديت إليهم من حضرة الدكتور بوست بواسطة حضرة السيدة الفاضلة لويزا رئيس المستشفى الألماني البيروتي لأن خشب الزيتون القدسي لم يكن صالحاً لذلك.

في بيروت

قدَّمت البلدية لجلالتهما أقمشة شرقية فاخرة وهي ستارة، وأربعة أغطية طاولة وغشاء مقعد، وأربع زوايا، وثوب حرير، وبرنس، ومشلح، وحذاءان جميعها من النسيج الحريري المزركش بالذهب والفضة وقد وضعت ضمن ملآة[1] من المخمل مزركشة بأسلاك الفضة رسم عليها الحرفان الأولان من اسمي جلالتهما وكتب عليها: «تقدمة لحضرة حشمتلو إمبراطور وإمبراطورة ألمانيا المعظمين من بلدية بيروت تذكاراً لتشريفهما سنة ١٣١٦ وسنة ١٨٩٨» وتقدم لجلالته قصيدة باللغة السريانية من ناسج بردها منصور أفندي الحكيم.

---

(١) ملاءة.

في الشام

قدَّم لجلالته سعادتلو عبد الرحمن باشا أمير ركب الحج سيفاً قديماً، وقدَّم سعادتلو متصرف حماه عباءة عسلية اللون مزركشة بالذهب والفضة، وكوفية من حرير، وعقالاً مزركشاً بالقصب، وطقماً للسفرة غاية في الإتقان، ولجلالة الإمبراطورة برنساً من الحرير مطرزاً بالقصب.

وقدَّم لجلالته سعادة متصرف حوران هجيناً قبله وأعاده إليه، وقدَّم سطام باشا الشعلان جواداً كريماً قبله وأعاده إليه أيضاً.

الوسامات

وسامات عثمانية

لقد منحت الحضرة السنية السلطانية الوسام العثماني المرصع حضرة المسيو دوبولوف وزير خارجية ألمانيا، ووسام الشفقة الأول قرينة الموسيو دوبولوف المشار إليه. ووسام الافتخار المرصع كلاً من الكونت أوللنبورغ التشريفاتي الأول، والجنرال هاتكه الياور الأول، والمستشار فون لوفانوس، والمجيدي المرصع البارون مارشال سفير ألمانيا بدار السعادة العلية.

وسامات ألمانية

أهدى جلالة الإمبراطور غليوم الثاني أثناء إقامته في الأستانة العلية، وسياحته في فلسطين، وسورية وسامات ذات طبقات مختلفة إلى مأموري الحكومتين العثمانية والألمانية، وسواهم نأتي على تفصيلها بحسب درجاتها:

في دار السعادة العلية

أهدى جلالته وسام النسر الأسود من الطبقة الأولى إلى حضرة فخامتلو دولتلو خليل رفعت باشا الصدر الأعظم، وإلى كل من حضرة صاحبي الدولة شوكت باشا قومندان الحرس السلطاني،

وسعد الدين باشا قومندان الموقع، والوسام نفسه من رتبة أوفيسيه إلى كل من حضرة أصحاب السعادة سليمان باشا قومندان الطوبجية، وحقي باشا قومندان فرقة أرطغرل، وبهير باشا قومندان أورطة الخيالة، ومحمد باشا قومندان مشاة البحرية، ورامي باشا مدرس المكتب الحربي السلطاني، وإلى كل من أصحاب العزة الأميرالاي شكري بك، والأميرالاي نوري بك، والأميرالاي إبراهيم بك.

والوسام نفسه من رتبة كولونل إلى تسعة من أمراء وموظفي العساكر العثمانية.

ووسام النسر الأحمر المرصع إلى كل من حضرة صاحبي الدولة منير باشا رئيس التشريفات الهمايونية، وحسن باشا ناظر البحرية.

والوسام نفسه من الطبقة الأولى إلى كل من حضرة أصحاب الدولة رضا باشا ناظر العسكرية، وممدوح باشا ناظر الداخلية، ومحمود جلال الدين باشا ناظر التجارة والنافعة، وحسن فهمي باشا رئيس ديوان المحاسبات، ورضوان باشا محافظ المدينة، وسليم باشا ملحمه ناظر المعادن والزراعة، والمشيرين شاكر باشا رئيس الأركان الحربية، وكمبفنر باشا أحد ياوران الحضرة السنية السلطانية.

وإلى كل من حضرة أصحاب السعادة إبراهيم بك، وغالب بك من مقدمي السفراء، وتوفيق باشا سفير الدولة العلية في برلين، وأحمد علي باشا، وناصر باشا من ياوران الحضرة السنية السلطانية.

والوسام نفسه من الطبقة الثانية إلى كل من حضرة صاحبي العطوفة حسين حسيب أفندي ناظر البوسطة والتلغراف، ومحمد علي بك معاون أمانة الرسومات.

والوسام نفسه من الطبقة الرابعة إلى كل من حضرة راغب بك ملازم الباخرة العثمانية (عطارد)، وصادق بك أحد مأموري نظارة الضبطية.

ووسام تاج دي بروسيا من الطبقة الأولى إلى حضرة عطوفتلو شفيق بك ناظر الضبطية، والوسام نفسه من رتبة أوفيسيه إلى كل من أصحاب السعادة أنور بك متصرف بك أوغلي، ومحمد علي بك مدير البلدية السادسة، ورفعت بك رئيس محكمة التجارة الأولى، ومصطفى بك مدير البلدية الرابعة، ورؤوف بك مدير أحد الأقلام بنظارة الخارجية، وخير الدين بك مترجم الصدارة العظمى، وسعد الدين بك أفندي مترجم نظارة الخارجية، وحسين حسني باشا قومندان جندرمة بك أوغلي، وعلي سعيد بك مهردار نظارة الداخلية وأنطونيادس أفندي مدير تلغراف بك أوغلي، والموسيو فون مويهالغ.

والوسام نفسه من الطبقة الرابعة إلى حضرة مستافيداس أفندي مدير الانتكخانة.

وقد أهدى مداليات تذكارية مختلفة إلى أربعين من الضباط العثمانيين.

في حيفا

أهدى جلالته وسام النسر الأحمر من الطبقة الثالثة إلى كل من حضرة صاحبي السعادة حسين أفندي متصرف لواء عكا، وأحمد أفندي شكري قائمقام حيفا.

والوسام نفسه من الطبقة الرابعة إلى كل من حضرة رفعتلو مصطفى أفندي رفاعي مدير جمرك حيفا، والموسيو أوتوفيشر

التاجر الألماني، والموسيو كلرفيس قنصل ألمانيا، والأب بارومانيشتر كاهن البروتستانت، والموسيو كودلب شوميخر فيس قنصل دولة أميركا، والخوري داهود الألماني.

ووسام تاج دي بروسيا من الطبقة الثانية إلى حضرة سعادتلو بدري بك قائمقام الأركان الحربية، والوسام نفسه من الطبقة الرابعة إلى حضرة الموسيو بوهنس كلر والموسيو فردريك لانه رئيس المدرسة الألمانية، والموسيو بوهنس هرمن، وبشارة أفندي قرداحي الترجمان الأول لقنصلاتو ألمانيا، وإلى كل من أصحاب الرفعة الأمير قيصر شهاب مدير تلغراف، وبوسطة حيفا سابقاً، وفضول أفندي ربيز مأمور البوليس، ونجيب أفندي الياس رئيس البلدية.

ومدالية الوسام نفسه الذهبية إلى كل من فتوتلو علي آغا رضا، وفؤاد أفندي سعد ترجمان قنصلاتو ألمانيا الثاني، ونخله أفندي قشوع الترجمان الثالث، والفضية إلى كل من القواصين عبد الرحيم آغا القاسم، وعبد الكسيح آغا(١).

أهدت جلالة الإمبراطورة حلية ذهبية مرصعة رسم عليها الحرف الأول من اسم جلالتها إلى كلٍ من الآنسات. آنه لانه، وهريت كلر ابنة قنصل ألمانيا، وشقيقتها تورا وأننخن شوميخر، وأما شميت، وشالوناصار، وهيلانه أند.

وهكذا إلى أربع بنات صغيرات من طالبات مدرسة بروسيا.

وأهدت دبابيس من ذهب مرصعة إلى كل من الآنسات الصغيرات بوهنس أثر، وأمس أيمن، وأنيسة فوخت.

---

(١) كذا وردت في الأصل.

في يافا

أهدى جلالته وسام النسر الأحمر من الطبقة الرابعة إلى كل من عزتلو حافظ بك السعيد وكيل رئاسة البلدية ومدير الرجي[١] في يافا، والموسيو شميت قنصل ألمانيا فيها، والبارون فون اوستينوف، وسرابيون أفندي مراد، ورفعتلو سعيد بك مدير الرسومات، والموسيو ستيكر مدير البوسطة الألمانية.

ومدالية الوسام نفسه إلى كل من أنطوني الخوري سالم، والياس أفندي الترك ترجماني قنصلاتو ألمانيا.

ووسام تاج بروسيا من الطبقة الثانية إلى عزتلو زهدي بك وكيل قائمقامية يافا.

والوسام نفسه من الطبقة الثالثة إلى مهران أفندي قومسير السكة الحديدية، وعزتلو يوسف بك بكباشي العساكر النظامية.

والوسام نفسه من الطبقة الرابعة إلى الموسيو جورج مراد كاتم أسرار قونصلاتو ألمانيا، وسليم أفندي كسار وكيل الفابورات[٢] الخديوية. والدكتور شارل لورخ الألماني، والموسيو فردريك كلنك، ورفعتلو محمد لبيب أفندي باشكاتب الرسومات، ومحمد أفندي فوزي قومسير البوليس، ويوسف آغا الجزدار يوزباشي الجندرمة[٣]، والبرت أفندي جوشي مأمور تلغراف يافا الفرنساوي، ومحمد أفندي مراد مأمور الطابو. ومدالية الوسام نفسه إلى كل من الموسيو أندراوس فيكل، والموسيو كريستيان يونك مختاري الألمان في سارونه[٤].

---

(١) الرجي: الريجي إدارة حصر التبغ.

(٢) الفابورات: البواخر.

(٣) الجندرمة: قوى الدرك.

(٤) سارونه: مستوطنة ألمانية في فلسطين.

في القدس الشريف

لقد أحببنا أن نثبت بيان جميع الوسامات التي منحت لبعض الوجوه في القدس كما أثبتنا بيان غيرها التي استحصلنا على كل ما يتعلق بها من المعلومات من قونصلاتات دولة ألمانيا الفخيمة، وسعينا بواسطة حضرة وكيلنا الفاضل بالقدس إلى نيل المعلومات اللازمة من قنصلاتو دولة ألمانيا هنالك، فبعد كثرة التداول ورد علينا من حضرته رسالة تلغرافية بتاريخ ١ كانون أول حساباً شرقياً تحت نومرو ١٨٥٧ تشير إلى الامتناع عن الاستجابة إلا بعد توسط قونصلاتو دولة ألمانيا في بيروت، ولما كان الوقت لا يسمح لنا بالانتظار رأينا أن لا مندوحة عن إغفال تلك المعلومات إلا من عرفناهم بالنفس بأثناء وجودها في القدس ممن أحرزوا الوسامات الآتي بيانها.

أهدى جلالته في القدس الشريف وسام النسر الأحمر من الطبقة الأولى إلى غبطة الحبر المفضال السيد لودفيكوس بيافي بطريرك اللاتين.

والوسام نفسه من الطبقة الرابعة إلى حضرة سعادتلو ياسين أفندي الخالدي رئيس بلدية القدس، وعزتلو ثروت بك قومسير البوليس الأول.

ووسام تاج دي بروسيا مرصعاً إلى غبطة الحبر المفضال السيد داميانوس بطريرك الروم الأرثوذكس.

والوسام نفسه من الطبقة الأولى إلى كل من غبطة الحبر المفضال السيد ارتينيان بطريرك الأرمن الأرثوذكس، وحضرة سعادتلو توفيق بك متصرف القدس.

والوسام نفسه من الطبقة الثانية إلى كل من سيادة الحبرين لفاضلين السيد فوتيوس مطران فلادلفيا للروم الأرثوذكس، والسيد بوديا مطران اللاتين، وإلى كل من حضرة الأبوين الفاضلين لأرشمندريت أفتيميوس رئيس القبر المقدس الأرثوذكسي، ورئيس عام الرهبان الفرنسيسكان.

وأهدى أيضاً وسامات، ومداليات مختلفة الأنواع والدرجات إلى كل من حضرة حاخامي اليهود والسكناج[١] بخور الياشار، وشمويل سالانت، والدكتور فالاح، وقومسير البوليس الثاني، وإلى كل من أحمد أفندي سعدي، ويوسف أفندي تراك، ومصباح أفندي، وعبد اللطيف أفندي، ورمضان أفندي، وقواس القونصلاتو، وعبد الرزاق آغا، وبعض رجال بوليس أدرنه، وهم فهمي أفندي، ونوري أفندي، وعبد الله جرجس أفندي.

في بيروت

أهدى جلالته وسام النسر الأحمر من الطبقة الثالثة إلى كل من صاحبي السعادة كامل أفندي ناظر الرسومات، وعبد القادر أفندي رئيس البلدية.

والوسام نفسه من الطبقة الرابعة إلى الموسيو ولهار قنشليار دولة ألمانيا، والقس فريدس الألماني، وإلى كل من أصحاب العزة سميح بك نجل عطوفة الوالي، وحسين أفندي مدير البوليس، وبشاره أفندي سر مهندس[2] الولاية الجليلة، وبرلادي أفندي مدير

---

(١) السكناج: الأشكناز، اليهود الغربيون.

(2) رئيس مهندسي.

المخابرات الأجنبية في تلغراف بيروت، ورفعتلو جرجي أفندي متري سرسق ترجمان قونصلاتو ألمانيا، وسعادتلو صفوت بك باش مدير تلغراف بيروت، ورفعتلو أسعد أفندي شكري القومسير الثالث في بيروت.

ومدالية الوسام نفسه إلى حضرة نقولا أفندي عضامي ترجمان قنصلاتو ألمانيا، ويسقجية القنصلاتو المومى إليها وهم عبد الرحمن آغا فروخ، وجرجس آغا روبيز، وعبد السلام آغا جارودي.

وأهدى وسام تاج دي بروسيا من الطبقة الأولى إلى حضرة عطوفتلو رشيد بك والي ولاية بيروت الجليلة.

والوسام نفسه من الطبقة الثانية إلى كلٍ من أصحاب السعادة أدهم أفندي دفتردار الولاية وعصمت بك قومندان الموقع وخيري بك أحد أطباء المستشفى العسكري، وبدري بك أميرالاي أركان الحرب، وميشال أفندي أده مدير الأمور الأجنبية في الولاية المشار إليها. وإلى كلٍ من أصحاب العزة عزيز بك أميرالاي الجندرمة وبرهان بك قومسير المرفأ، وعثمان بك قومسير السكة الحديدية، والدكتور شردور قنصل دولة ألمانيا العام.

والوسام نفسه من الطبقة الرابعة إلى كل من الخواجات فرنك وكابس وناس وفانكهانيل ومير أعضاء المحكمة التجارية الألمانية في بيروت، والموسيو هنكي مدير الفابورات النمساوية في بيروت.

في لبنان

أهدى جلالته وسام النسر الأحمر من الطبقة الأولى إلى حضرة صاحب الدولة نعوم باشا متصرف جبل لبنان.

والوسام نفسه من الطبقة الثالثة إلى حضرة سعادتلو الأمير مصطفى أرسلان قائمقام قضاء الشرف.

وسام تاج دي بروسيا من الطبقة الثالثة إلى كل من حضرة صاحب السعادة اسكندر بك التويني مدير الأمور الأجنبية وصاحب العزة الأمير قبلان بللمع قائمقام قضاء المتن.

جندية لبنان

أهدى جلالته وسام تاج دي بروسيا من الطبقة الثانية إلى حضرة عزتلو ملحم بك أبو شقرا أميرالاي الجند اللبناني.

المهندسون

أهدى جلالته وسام النسر الأحمر من الطبقة الرابعة إلى كل من صاحبي الرفعة البرتو أفندي، وخليل أفندي الشدياق مهندسي المتصرفية الجليلة.

في الشام

أهدى جلالته وسام النسر الأحمر من الطبقة الأولى إلى حضرة ذي الدولة ناظم باشا والي سورية الجليلة، وذي السعادة حقي باشا قومندان الأوردي[1] الهمايوني الخامس.

والوسام نفسه من الطبقة الثانية إلى كل من أصحاب السعادة توفيق باشا قومندان الطوبجية، وشهاب الدين باشا قومندان الرديف[2]. وعزتلو غالب بك أميرالاي الطوبجية.

---

(١) الأوردي: العرضي: الجيش.

(٢) الرديف: الاحتياط.

والوسام نفسه من الطبقة الثالثة إلى كل من سعادتلو خليل أفندي الخوري مدير الأمور الأجنبية، وإلى كل من أصحاب الرفعة البكباشية رضا بك وعبد الحميد بك وعزت بك.

والوسام نفسه من الطبقة الرابعة إلى كل من أصحاب العزة محمود أفندي الخجا رئيس البلدية، وسليمان بك مدير البوليس، وخليل بك العضم. وكل من أصحاب الرفعة إبري أفندي مهندس البلدية، ومصطفى بك بكباشي الجندرمة، وعبد اللطيف أفندي قائمقام وادي العجم، وفتوتلو مصطفى آغا ياور دولة الوالي، وعزيز أفندي ياور حضرة قومندان باشا.

ومدالية الوسام نفسه إلى كل من خليل أفندي شلهوب، ورشيد أفندي، وإسماعيل بك، وأحمد بك من قومسيرية البوليس، ورفائيل أفندي ريس من أفراد البوليس.

ووسام تاج دي بروسيا من الطبقة الأولى تبديلاً إلى حضرة الفريق سعادتلو نوري باشا قومندان السواري.

والوسام نفسه من الطبقة الثانية إلى كل من أصحاب السعادة رئيف باشا رئيس أركان الحرب، وعلي باشا قومندان حوران، والمير لواء السواري محسن باشا، وعبد الرحمن باشا أمير ركب الحج الشريف، وخسرو باشا قومندان الجندرمة، ومحمد باشا العظم، ومنير عالي أفندي دفتردار الولاية، وجلال الدين بك صهر دولة الوالي. وأصحاب العزة إسماعيل زهدي بك أميرالاي أركان الحرب، وإسماعيل سامي بك قائمقام أركان حرب، ومصطفى بك قائمقام الطوبجية، ومحمد أفندي بكباشي الطوبجية، وعمر بك أميرالاي النظامية، ورضا بك أمير آلاي النظامية، وأميري آلاي السواري نوري بك وعاصم بك، والقائمقام علي بك قومندان مركز الشام، والقائمقام زاهد بك قومندان مركز بعلبك.

والوسام نفسه من الطبقة الثالثة إلى كل من أصحاب السعادة سروري أفندي متصرف حماة، ونجيب بك مكتوبجي الولاية، وحلمي أفندي باشمدير التلغراف، وسليم أفندي أيوب، وحسني أفندي رئيس محكمة التجارة. وأصحاب العزة مراد أفندي القوتلي، ورشدي بك الشمعة، وشريف أفندي قول آغاسي أركان الحرب، وعلاء الدين أفندي.

والوسام نفسه من الطبقة الرابعة إلى عزتلو يوسف أفندي طنوس باشكاتب القلم الأجنبي، وإلى كل من أصحاب الرفعة عزيز أفندي قومسير البوليس الثاني، ومحمود أفندي غزي قائمقام البقاع، وحسين عوني أفندي قائمقام بعلبك، وجبران أفندي لويس، وباسيلي أفندي مأمور تلغراف الشام، وأمين أفندي مأمور تلغراف بعلبك، وسيمنو آغا ياور دولة الوالي، والملازم عثمان أفندي وجناب الوجيه بشارة أفندي الأصفر ترجمان قونصلاتو ألمانيا.

ومدالية الوسام نفسه الذهبية إلى رفعتلو حيدر بك مخدوم حضرة عطوفتلو حقي باشا، ونقولا أفندي شاهين، وإلى أحد عشر نفراً من البوليس، وإلى قواص قونصلاتو ألمانيا ملحم آغا شمعون.

صدى الوطنية

مرفوعة إلى العرش الأسنى عرش حضرة صاحب الخلافة العظمى
سيدنا ومولانا السلطان عبد الحميد خان الغازي
دام مؤيداً بالنصر

جعلـتُ نظـام الـشعر وقفـاً مؤبـدا
عليك وصغتُ الشكر درّاً وعسجدا
وباسمك ألبست القـريض مطارفاً
يتيـه بهـا فخـراً وعجبـاً وسـؤددا
وكنتُ هجرت الشعر قبلاً فشاقني
لمعناهُ منك الحـزمُ والبـأسُ والنـدى
صـفاتٌ لـساني لا يحـيط بوصـفها
ولـو أننـي أفنيـتُ عمـري معـدّدا
كـأني بـروضٍ كلّمـا شـمتُ وردةً
أرى مثلهـا ألفـاً تزيـد تـورّدا
ترنحـت الـدنيا لـذكرك بهجـةً
وأزهـرتِ العليـاءُ والـدهر أنـشدا

(سواك يهاب الموت أو يرهب العدا
وغيـرك يرجـو أن يعـيش مخلّـدا)
إذا التـوتِ الأيـامُ يومـاً فمـن تـرى
يقوّمهـا إن لـم تمـدّ لهـا يـدا
وإن شـقيت تفـي النـاس حـالٌ فهل
سواك على إسعادها اليوم منجدا
نـشرتَ لـواءَ العـدل والعـدلُ شـاهدٌ
بأنـك خيـرُ النـاس شـأناً ومحتـدا
وعـزّاً وإقبـالاً وجـوداً ورحمـةً
ولطفـاً وإشـفاقاً ورأيـاً مـسدَّدا
وكم فتحت أيدي الحوادث للردى
رتاجاً ولكن فيك قد عاد موصدا
نظيرك هل بالأمس كان فلم يكن
ولا اليوم يا عبد الحميد ولا غدا
تبـوّأتَ تخـت الملـك والله ناصـرٌ
فكبَّـرتِ الإسـلامُ والـدينُ وحّـدا
وطأطـأ رأسُ الـدهرِ خوفـاً ورعـدةً
لفيلقـك المنـصور وارتاعـت العـدا
ومـا الـدهر إلا عبـد دولتـك التـي
بهـا رحـم الله العبـاد وأسـعدا

ولا بـارقٌ مـن غيـرِ رأيـك يجتلـى
ولا نائـلٌ مـن غيـر كفـك يجتـدى
جيوشك كالآساد في الحرب لا يرى
مبـارزهم إلاّ الفـرار أو الـردى
وجرَّدت من ماضي العزيمة مرهفاً
تلـوح بـروق النـصر منـهَ إذا بـدا
حـسامٌ لـهُ بـين الأعـادي مـضاربٌ
أبـى حـدهُ إلا الحنـاجرِ مـوردا
يـسطّر في الأعنـاق آيـات نـصرهِ
ومضمونها هـذا جـزاءُ مـن اعتـدى
سـلمتَ أميـر المـؤمنين ودمـت في
عـلاكَ علـى كـل الخلائـق سـيّدا
ولا زلـت كالـشمس المنيـرة مـشرقاً
علينـا وبالنـصر المـبين مؤيـدا
ودام صـفا غليـوم نحـوك ثابتـاً
مدى الدهـر يرعى للصداقة معهدا

العبد المخلص الأمين
إبراهيم الأسود
صاحب جريدة لبنان

صدى العثمانية

مرفوعة إلى عرش حضرة ذي الجلالة الإمبراطور غليوم الثاني
إمبراطور دولة ألمانيا الفخيمة

بك الشرق شام السلم ركناً موطّدا فنظم فيك المدح عقداً منضدا
وقلدت منهُ الجيد دراً وما عسى يقابل بالمدح الذي منك قُلدا
وعن مقةٍ أوطئت ركبك أرضهُ ليشكر مأتاك مغيباً ومشهدا
وليس عجيباً أن تتوق (ليلدزٍ) فكم اطلعت منهُ سما السلم فرقدا
فإنكما قطبا نظامٍ وحولهُ تطوف ملوك الأرض مثنى ومفردا
ولا بدع أن دار السعادة عن جوى لديك غدت تبدي الولا والتودُّدا
فكم آنست من جوّ برلين بارقاً أبى أن يرى جوّ السلام ملبّدا
رعى الله برليناً فكم من ممّلكٍ أشاد بها للسلم صرحاً ممردا
فجدك غليومٌ أعاد بحكمةٍ إلى أمّة الألمان منهُ التوّحدا
وأوردها عزّ الخضوع لحكمهِ موارد منها عيشها ظل أرغدا
فعادت بجسمٍ واحدٍ ولطالما أقام بها داعي الشتات وأقعدا
رأت أن ناموس التقدم لم يكن بغير اتحادٍ في الشعوب مؤيدا
وذا عالم التكوين لولا انقيادهُ إلى الجذبة العظمى لراح

وما ضرّه جذبٌ ودفعٌ لأن من كلا حالتيهِ للتكوّن مُرفدا
وذاك نظامٌ ضمَّ أجزاء أبحرٍ فطفتَ بها للشرق ربعاً ومعهدا
وأسعدها بالمد والجزء مثلما بيأسك والحلم اغتدى الملك أسعدا
فتلك التي لا يجحد الشرق فضلها ويهدي لها منهُ الثناء المخلدا
أعدت مياه الصين صافية وكم بأطرافها أرغى الحِمامُ وأزبدا
وسوريةٌ إن هزّها الأنس واغتدت تهادي التهاني فيك مثنى وموحدا
فقد آنست منك الولاء وأبصرت لسلطانها الغازي الوفاءَ المؤكدا
ومذ لاح (هنزولرن) في الغمر أحدقت
قلوبٌ بها كم غار شوقٌ وأنجدا
رأت منه برجاً ضمّ بدراً فصيرت لترقبهُ لكن من الشوق مرصدا
وحيّته لكن بالمهابة بعد ما رأت فيه بحراً بالسياسة مزبدا
سرى بك يحدوهُ البخار كأنهُ بساط سليمان به الريح قد حدا
يشقُّ ضمير البحر حتى كأنه حكيمٌ على كشف الغيوب تعوّدا
وإن يتخذ من غارب البحر مركباً فإن له فوق المجرّة مقعدا
لقد أدركت فيك الورى كل غاية ونالت بك الأيام مجداً وسؤددا
فكم خطبة في السلم سارت ولو لها شبا السيف أصغى أصبح السيف مبردا
تروم بها بثّ السلام وإنما تروم بذا للكون خيراً موطدا
كأن اكتشاف العلم كلَّ خبيئةٍ ليهدم ما الرحمن في الكون شيّدا
فكان اكتشاف الجاذبية غايةً لأن تجذب الأرواح سلسلةُ الردى

وما سُيِّر المنطاد إلا ذريعةً ... ليقتنص الأرواح فيه تصيّدا

وذلّل أعناق البخار لأمرهِ ... ليمطر منهُ عارض الحتف لا المجدا

وما مُدَّ ذاك السلك إلا وسيلةً ... لأن يصبح العمران شملاً مبدا

وكان انقياد الكهرباء لحكمه ... معيناً على نهب النفوس ومنجدا

فبقياً على السلم التي قد أنلتها ... بإمداد مولانا الحميد توطُّدا

فهذي رجال العصر طرّاً سميعةٌ ... نداك فلا تعدو لرأيك مقصدا

بنده
إبراهيم الأسود
صاحب جريدة لبنان

قال جناب صاحب الفضيلة سليمان أفندي ضاهر
خادم العلم الشريف في النبطية مادحاً جلالته

الإخلاص

لو وفت قدر شوقها الأوطانُ   لاقتفت إثر سيرك الألمانُ
أو مشى الدهر عن هوىً لعظيمٍ   لمشى عن شوق إليك الزمانُ
ليس بدعاً إن رحبت بك سوريا فمنها بدر السما غيرانُ
لم تكن يوم طاف اسكندر الشرق لتحكي سورية اليونانُ
ما رأت قط مهرجاناً كيوم   هو مذ زرت أرضها المهرجانُ
جحد العلم ان للشمس سيراً   وعلى عكس حكمه البرهانُ
حيث فيك انطوى من العدل   ولها السير منك والدورانُ

وقال جناب رفعتلو ميخائيل أفندي عيد البستاني
باش كاتب محكمة دير القمر

لمن الجيوش يقودها الظفرُ   فكأنما لمرادها القدرُ
تعدو بهم قبٌّ مطهمة   عُلمت لها يوم الورى غررُ
من كل ذمرٍ في الحديد له   وجهٌ أغرّ كأنهُ قمرُ
ولمن بواخر في البحار لها   في كل يوم بالعلى خبرُ
تجري جبالاً والعباب لها   طوعٌ بما ترضاهُ يأتمرُ

وقال جناب يوسف أفندي شلهوب الحويك

بيروت ميسي ببرد العزّ وافتخري — بأوحد العصر ربّ البيض والسمرِ
كم قد رصدت ببرج المجد كوكبه — مذ طار منه إليك طائر الخبرِ
قد جآك اليوم غليوم الذي سطعت — في أفق مجدك شعرى مجده النضرِ

فهرس القصائد الواردة في الكتاب

١- صدى الوطنية لصاحب الكتاب إبراهيم أسود.

٢- صدى العثمانية لصاحب الكتاب إبراهيم أسود.

٣- الإخلاص لصاحب الفضيلة سليمان أفندي ضاهر خادم العلم الشريف في النبطية مادحاً جلالته.

٤- جناب رفعتلو ميخائيل أفندي عبد البستاني باش كاتب محكمة دير القمر.

٥- جناب يوسف أفندي شلهوب الحويك.

فهرس الكتاب

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الطبعة الأولى / ٢٠٠٨
عدد الطبع ١٥٠٠ نسخة



مطبعة الهيئة العامة
السورية للكتاب
٢٠٠٨

السعر (٥٠) ل.س